رواية

من حواء إلى آدم

مؤمنة محمود

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

الطبعة الأولى

٢٤٤١ . ٢٠٢١م

رقم الإيداع

٣٨٨٣

تصميم الغلاف

جواد سبيعي

رواية

من حواء إلى آدم

«رسائل تاهت في متاهات مظلمة»

تأليف

مؤمنة محمود

تدقيق لغوي

عبد الله راتب النفاخ

الإهداء

إلى من زرعت الفرح في وريدي

إلى من زرعت الثقة في نفسي

إلى من زرعت الحب في فؤادي

إلى الأم والأخت والصديقة

إلى التي ما زالت يدها في يدي تخشى سقوطي غير المتوقع

إلى أفراج... أهديها روايتي المتواضعة

كلمة شكر

لأولئك الذين ما ابتعدوا عنا يوماً

يزيّنون أحزاننا فيحيلونها إلى أفراح

شموعاً لنا في ظلمتنا ونبراساً نهتدي به

لأولئك الذين ما فتئوا يضحكون رغم الخيبات الكاسرة

لكل من أمسك بيدنا خوفاً عليها من السقوط

سأغادر حياتك بقلب بارد كالثلج...

سأترك خلفي ذكريات ستحنّ إليها يوماً...

لكن إياك ثم إياك أن يرن هاتفي بعد الساعة الثانية عشرة

لتقول لي إنك في شوق جارفٍ إلى حواء.

أنا وردة عطرة إن استمتعت بعبيري أنعشتك.

وإن قطفتني جرحتك.

أنا زجاجة عطرٍ إن استحممت بعطري أنعشتك...

وإن كسرتني جرحتك.

أنا قطة أليفة إن مسحت على رأسي ابتسمت...

وربّما نمت في حضنك...

وإن لعبت معي جرحتك.

سأكررها عليك إلى أن يتصدع رأسك بها.

إياك أن تحب امرأة كاتبة.. إياك... إياك...

ثم إياك...

إن لم تكن كاتباً فلا تقترب من كاتبة.

أنت حينها ستدخل حرباً لا تحمل فيها سلاحاً.

إن خذلتها، فستعدمك بمشنقة من كلمات.

إن آلمتها... فستجرّك خلفها بحرف جر.

إن أوجعتها... فستشنقك بمشنقة من ورق.

إن جمعتكما معركة أدبية فستهزمك... ستهزمك.

(شغف) خليل عواوده

زرعت حديقة كبيرة، وغرستُ فيها أروع الزهور والورود وأطيبها، من ورد جوري وياسمين وفل وحبق ونرجس وكافة الزهور ذات الرائحة العطرة، رويتها بالماء إلى أن كبرت وترعرعت والسعادة تغمرني، حميتها من الوحوش بسورٍ ضخم عالٍ، ومنعت الجميع من دخولها، وراقبتها وهي تنمو وتتفتّح تداعبها نسمات من الهواء العليل، فتتراقص يمنة ويسرى، رافعة رأسها للشمس.

إلى أن جئتَ، أوهمتني بحبّك لحديقتي، وأنك تعشق لثم الأزهار، والاستمتاع بعبيرها. وحدك أنت من أدخلته حديقتي، لمحت سعادتك فيها وبت لا تغادرها بتاتاً، وبالتالي لم أمنعك عنها.

إلى أن هبّت رياحك العاتية، اقتلعتَ نباتاتي، رأيتها متطايرة في الهواء أشلاءً، ورحلت أنت إلى البعيد مخلّفاً وراءك حديقة مهجورة عاث فيها الخراب ودمّرها.

صرختُ باكية، راجية متألّمة، لم فعلت ما فعلت بها؟ زرعتها سنين، وبنيت حولها ذلك السور الضخم لأمنع عنها شتّى الوحوش، ولم أحرمك منها.

لم أدرك أنك الذي دخلت من الباب على هيئة عصفور جميل، تفعل ما فعلت بحديقتي الغنّاء هكذا؛ ولكنك لم تكن سوى طائراً باشق.

الآن يا سيدي أعدتُ ترميم حديقتي من جديد، كثرت أزهاري، وأضحى سوري أضخم وأعلى.

فحذارِ... فحذارِ... ثم حذارِ أن تحاول الاقتراب منها.

إلـيك آدم

إلـيك أكـتب

هي ليست بحواءٍ واحدة، هي كلّ حواء تعيش في مكان ما، تحاول السماح والغفران لآدم، وتتمنى البقاء على عهد حبّه الكاذب.

إن كان يا عزيزتي حواء آدم من هذا الصنف فاحزمي حقائبك واهربي سريعاً دون أن تربطي حذاءك، ما يهمك هو الهروب حيث لا يجدك.

أتدرين لماذا؟ لأن خياناته كثيرة وستتلاحق الواحدة تلو الأخرى، وما عليكِ سوى ذرف دموع لا حصر لها بينما يرقص على جراحك مع أخرى، وفي حال غفرانك الدائم له سيظن أنك ستسامحينه في المرّة القادمة فيأتي إليك بقلب قاس وحب واهم، غادري عالمه الآن ولا تنظري إليه، وإياك ثم إياك أن تلتفتي خلفك فيرقّ قلبك، وتنحني لأيّام عسلكما الأوّل، هي أيام انقضت ولن تعود ثانية، ولكن لا تخذليها وأبقيها في خزانة ذاكرتك تعودين إليها حين تشتاقين، تبكينها وتضمّينها وتعيشينها من جديد كذكرى فقط.

واعذرني يا آدم إن قسوت عليك كثيراً، ولكن ما ذنبي إن كنْتَ عاشقاً غبياً، تعشق النساء جميعهن دفعة واحدة، تتخذ الأولى زوجتك ولا تتمنى فراقها، والثانية في هاتفك حبيبة، والثالثة على فراشك عشيقة، وفي العمل لا تنسى أن تحتفظ بصديقة، وتتهم حوّاء بالخيانة.

هي ليست روايتي فحسب، بل رواية كلّ حواء، ذاقت الغدر منك، وما تزال على أمل أن يدقّ قلبه باسمها فيأتيها راكعاً، متوسّلاً، باكياً تحت قدميها. لا يا حواء لن يفعلها آدم كوني على يقين من ذلك، فهو لن يعتذر بتاتاً، وباستطاعته أن يجعلك أنت من المخطئات، هو يعدّ نفسه إلهاً منزّلا وعليك إطاعته وإلا هجرك وفرّ لأخريات.

ولكنك يا صديقتي، لا يلزمك ذكرٌ كهذا. فأنت سيّدة نفسك شاء أم أبى، عظيمة بذاتك، قويّة بإرادتك، رائعة بإصرارك. لا تجعلي نفسك رهينة لرجل لم يكن في صنف الرجال يوماً.

فابتعد يا هذا عن حواء؛ فإن لم تكن أهلاً لها؛ فغيرك أولى بها.

* * *

أتكفيك عشرين رسالة عتاب لتهجر الهجر وتأتي، لتخرس الصمت وتحكي، رحلت بلا وداع، رفضت سماع نحيب قلبي حين ناداك، يحقّ لي أن أسألك لماذا حرقت قلباً ذاب بحبّك وأشعلت سيجارتك من ناره وأطفأتها في رماد القلب لترحل دون أن ألمح آثاراً لأقدامك في حياة دخلتها وخرجت منها.

الرسالة الأولى

هل تدرك حجم الألم الذي سببته لي؟ طبعاً لن تدرك هذا. مع أن آلامك ما زالت في قلبي رافضة الرحيل.

كان الله في عوني إذن. كيف حالك الآن؟ بعد أن تفنّنت في الهروب بعيداً إلى حيث لا يجمعنا مكان. كنت أسرع من أي غزال يعدو هرباً من نمر متوحش يركض مسرعاً نحوه ويحاول الفتك به والخلاص منه، لكن أنت ممن كنت تهرب؟، وممن تحاول الخلاص؟

محترف في الهروب دائماً'، في كلّ مرّة أتلفت يميناً ويساراً'، فأراك قد ابتعدت خطوات إلى الوراء دون أن أنتبه لخطواتك الكبيرة وهي تضيع بين ركام الأيّام، فتتركني كما عهدتك وحيدة على رصيف الحبّ.

جمعت خياناتك جميعها في رسائل أتمنى أن تصلك وإن كان الوقت قد تأخر ولا داعي لإحياء ماضٍ دفناه معاً. ولكنها جراحي منك ما زالت تنزف إلى يومي هذا. ستفهم منها حجم ألم سببته أنت وستدرك حينها رحيل حوّاء إلى الأبد، من بين سطورها سيطلّ حزن حواء ليعاتبك على قسوتك معها.

أكلّ الرجال مثلك؟ أم فقط أنا التي ابتليت برجل محسوب على الرجال، ولم يكن يوماً رجلاً!

أعلم كما تعلم أنت أنّ هذه الرسائل لن تصلك إطلاقاً. وإن وصلتك فلن تقرأها، لن تقرأ حرفاً واحداً منها. أدرك مدى كرهك لقراءة سطر واحد، فكيف وإن كانت عشرون رسالة جميعها تهاجمك وتعرّيك.

* * *

كنت توّاقة لحبٍّ عاصف أحيا به ويحيا بي، ومذ أن تفتّحت كالبرعم النضر وهذا حلمي الصغير. قصة حبّ أتوّج بطلتها، شأني ذلك شأن كل الفتيات منذ مراهقتهن.

تقمّصت دور البطلة في كل رواية أقرؤها، عشقت القراءة كثيراً والكتابة أيضا، لأجلك كتبت أشعاراً وخواطر كثيرة عن حبّ يجمعنا، وإن كنت ما زلت مجهولاً بالنسبة لي.

عشقت «تشارلز ديكنز»، و«فيكتور هيجو»، و«ألبير كامو» وعشرات الكتّاب الذين استضافت غرفتي ما كتبوا، أنهي الرواية بيومين أو ثلاث. فأكتب رواية لا جمهور يقرؤها سواي، أكتب عنك وعنّي فقط.

صنعتك في رواياتي كما يحلو لي، رسمت شخصيتك التي أهواها.، صنعت أفكارك، عالمك، عائلتك، أقاربك، كلّها أشياء اخترعتها بمخيّلتي الصغيرة لأسعد معك كيفما أشاء.

كرهت الخطب التقليدية لأني أرغب بالوقوع في شباك حبّ لذيذ، يأخذني إلى عالم مختلف، كنت أرغب بآدم يتحّدى الكون لأجلي لا يتحداني لأجل الكون. يعشقني لذاتي، لا لإتمام نصف دينه فقط. أليس هذا من حقّي؟

وحين أحدّث أختي عن الحبّ، أخبرها بحلمي الصغير وهو شاب يعشقني وإن كان فقيراً ما يهمني هو امتلاكه لروح الحب في قلبه. أقبل العيش في خيمة صغيرة وفطورنا خبز وزيتون، أنا وهو والحبّ ثالثنا. كانت تضحك من سذاجتي لتخبرني بأنّ الحب ليس كل ما في الحياة، أغلق أذنيّ الاثنتين وأخرج غاضبة من الغرفة فهي لم تعش الحب لتجادلني به.

عشت حياتي قبل أن أجدك على أمل لقائك يوماً. بحثت عنك في ذاكرتي فيما أنت خارج عالمي تعيش.

سجنت نفسي داخل غرفتي الكبيرة في الزاوية وعلى السرير الحديدي الذي يشبه أسرّة السجن. أنام عليه وأتخيّلك كيف ستكون؟ وكيف ستجيء؟ وهل سأحظى بفرصة حبّ تجمعنا؟

وعلى تلك الماكينة الخشبية القديمة التي اشترتها أمّي حين تزوجت والدي، وحوّلتها أنا بعد أن كبرت وبدأت أكتبك على طاولة أضع عليها روايات قديمة لأقرأها ودفاتر كنت قد كتبتُ فيها، وقلم رصاص صغير. فالكتابة كانت لا تحلو دون قلم رصاص، هي متعة من نوع آخر، فلا أدري الآن لماذا تركت قلمي الرصاص لأكتب بالقلم الأزرق الناشف، ربّما لأن كتاباتي تغيّرت ولأني نضجت فما عاد قلم الرصاص يشبع غريزتي في الكتابة.

أكتب وأكتب عنّك فلا أملّك، هل تكفي عشرات الدفاتر لأصفك كما أحبّ وأرغب، في ذهني رسمتك وعلى الورق كتبتك، متى ستصبح ماثلاً أمامي فأعشقك من جديد ولكن كيف ستراني؟ إن لم أكن أبارح غرفتي الكبيرة هذه، فكيف سألتقي بك؟ ومتى؟.

أحببتك قبل أن يكون هناك لقاء يجمعنا. لأنّي عاطفيّة إلى أبعد حدّ، أحسست بمجيئك يوماً وإن تأخرت قليلاً فلا يهم.

لذلك أعذرني على حبّي لك وإن كان عاصفاً فهذا لأنك أول من يطرق قلبي، وفتحته لك جاهلة بما تخبّئه لي أنت والأيّام.

M. A. M

٢١/٥

الرسالة الثانية

مؤسف أن ننهي ببساطة قصّة بدأناها سويّة وأثمرت طفلتين، مؤسف أن تكون أنت من هرب أولاً لأهرب منك لاحقاً في اتجاه معاكس.

مؤسف أن يبقى يومان فقط لحبنا وبعدها يدفن في مقبرة النسيان، ستدفنه أنت وحدك وتمضي، لأشيّعه وحدي وأصلّي عليه بمفردي، وأبكيه وحدي، وبعدها سأسلك الدرب الذي سلكته، ستلتقي عيناك عيناي ولن أكون نفسها التي رحلت عنها دون وداع، سأكون أخرى لا تعرفها صنعت قوّتها حين شيّعت حبّها وحدها.

يومان ونعود غرباء كما بدأنا. هل ستتعرّف إليّ مجدّداً لنبدأ قصّة حبّ جديدة، ونعالج أخطاء الماضي كي لا نتوه مرّة أخرى.

إذا وصلتك رسالتي هذه وكنت غريباً لا تعرفني، فعد واطرق قلبي ثلاثاً، فإن لم آذن لك فامض في سبيلك، وإن فتحت للحب باباً لك فسأنسى كل شيء وأستقبل الحبّ على يديّ من جديد.

* * *

ومع أنّي توّاقة للحب كثيراً ورغم ذلك كنت أخشاه بقدر حاجتي له، فقد كنت أخشى أن يأتيني واحد مثلك يوهمني بقصّة حبّ لا أساس لها، فأغرق وأتوه في العدم، دون أن ألمح يديه تسارع لانتشالي، ربّما ما حصل مع حبّنا هو خوفي الدائم من فقدانه مما يجعلني دوماً أتناسى لحظة السعادة لأوقع نفسي في دوّامة فراق قبل أن نلتقي.

تعدّيت عامي العشرين وبتّ تواقة للحب أكثر م قبل يا عزيزي، أتسمح لي بمناداتك عزيزي؟ فربّما هي المرّة الأخيرة التي يحقّ لي فيها مناداتك بهذه الألقاب. كنت أفتّش عن الحب في زواية لا مكان للحبّ فيها، ولكن الأمل كان يحدوني أن أجده. وكنت واثقة بحدسي الذي لا يخيب بتاتاً.

حاول شاب في الجامعة استمالة قلبي الصغير، لكني تحاشيته وهربت منه، خوفاً على نفسي من نفسي، كنت أريد حبّاً طاهراً ونقياً يأتي من الباب، أفتخر به أمام الملأ، أجاهر به ولا أخاف لومة لائم، لا حبّ يأتي من نافذة صغيرة. الهروب منها هو الحل السريع للخوف من ارتباط ربّما يبوء بالفشل.

من بيئة محافظة كما علمتَ، ملتزمة بعض الشيء، لم أكن جاهلة أو معقّدة كما كنت تظن، لذلك خشيت على نفسي من حبّ عاصف يأتي فجأة ولا أكون مستعدّة له، وحين أستعدّ وأستقبله بكامل أناقتي يفرّقنا قدر لا فرار منه، ويتركني شهيدة عشق على قارعة طريق مجهولة أتسوّل لحظة اهتمام أو حبّاً جديداً.

ومع ذلك كم تمنيت لو أتيتني من النافذة بدلاً من ذاك الباب الذي كان مواراباً حين دخلت منه، ليتنا عشقنا بعضنا قبل أن تطرق باباً وأنت لست مستعدّ لذلك، ربّما حينها تغرم بي وأغرم بك ولا يكتب لنا فراق لا عودة بعده. أيعقل أن يكون هناك عودة جديدة؟ هذا ما لا أظنه. فلتكن غريباً لعلي أغرم بك كثيراً وأعشقك دون أن يكون هناك رباط يشدّ وثاقنا بإحكام فتهرب منه مجدّداً.

هذا مجرّد رأي فقط. لا أدري إن كان لك رأي آخر، ولا أدري إن كان يحقّ لك الآن إبداء الرأي.

لم يكن مجيئك ينقصني، كنت سأعشق في كلتا الحالتين، أعشقك أنت أو أحداً آخر، كنت فعلاً بحاجة إلى الحبّ، ولكن حبّ رجل حقيقي، أمّا أشباه الرجال فلا حاجة لي بهم.

هل تفهم رسالتي هذه؟ هل تفهم ما كتبت فيها لأجلك؟ لأجلك وحدك.

M. A. M

٢٨/٥

الرسالة الثالثة

في غمرة انشغالي في الحياة نسيتك فاعذرني إن فقدت أولوياتي وأنت أوّلها.

إن عدت غريباً عني، وعدت غريبة عنك فتعرّف إلي مجدّداً، لعلنا ننسى ماضينا، ونبدأ حاضرنا بحبّ جديد.

ولكن.. ربّما لن أعود إليك، سأحاول نسيانك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، كنت حبيباً والآن بتّ غريباً لا أكثر.

* * *

وأخيراً جئت أنت، بطولك الفارع وبياضك الجذاب، جسدك الرياضي وعيناك البنيتان الصغيرتان، ابتسامتك الخجلة وكأنك في حياء كالفتاة، وسامتك الرائعة وكأنك بطلُ في دراما كوريّة، تشبه لي مين هو الممثل الكوري المشهور لكما نفس الطول ونفس الابتسامة فعشقتك أكثر وأكثر.

لم تدخل من النافذة ومع ذلك عشقتك كما لو عرفتك منذ سنين عديدة، لم أرك حين دخلت من ذاك الباب الحديدي ذي اللون الأخضر. أقسم لك حين دخلت شعرتُ أنك عصفورٌ صغيرٌ فقد أبويه وبحاجة إلى حنان أنثى يتخذها وطناً، ومع ذلك فقدت وطني ولم أرَ فيك الوطن الذي فقدته. هل ما زلت تتذكّر تلك اللحظة؟ حين دخلت وكنت خجولاً كأنك أنت الأنثى وأنا الذكر، تقابلت عينانا في جزء من الثانية ثم انخفضت العيون خجلاً أو ربّما حياءً.

مازلتُ أذكر تلك الليلة من ليالي أبريل حيث كانت جلسة عائلية ليس إلا، عائلتك وعائلتي تفكّران في ارتباطنا دون أن نعرف بعضنا، دون أن أعرف من تكون؟ ما هواياتك؟ من تحب ومن تكره؟ ولكن كنت واثقة بك بأنّك ستغرقني في بحر من الحبّ، سنغوص معاً حدّ الثمالة إلى أن نسكر وننهل من حبّ يأخذنا بأمواجه الجارفة نحو عالم لا يمتّ بصلة إلى عالمنا المليء بالجفاف.

كان ذلك قبل ست سنوات من الآن، أعطيتك فنجان القهوة دون أن ألمح الخجل في عينك، لم أكن أعرف حينها أنك تكره القهوة مثلي. ها نحن نتّفق في كرهنا للقهوة، هل سنتّفق في أشياء أخرى؟

في ذلك اليوم الربيعي من أبريل رأيتك أول مرّة، ورأيت ملامحك الخجلة وهي تحفظ تقسيمات وجهي دون أن تنظر إليّ مراراً وتكراراً، وتمّ تحديد الخطبة وعقد القران، وكنت في غاية السعادة من حبّ سيولد في التوّ.

خرجتَ من ذاك الباب نفسه الذي دخلت منه بقامتك الممشوقة وحذائك الرياضي وثيابك البسيطة، وثقتك بنفسك بأني أصبحت ملكك دون أن أنتبه لذلك، هي ما جعلتني أغرم بك، مع خروجك كنت قد نسيت ملامحك الجذّابة، إذ شاهدتك مرّتين فلم يتسنّ لي حفظ ملامح وجهك جيّداً.

جلست أمام روايتي التي كنت أكتبها وأحاول تذكّر ملامحك جيّداً لأكتب عنك سطوراً لا تمحي مع الزمن، ربّما يأتي يوم تقرأ فيه ما كتبته لك، ولم أدرِ أنك تكره قراءة سطرٍ واحد، فكيف لو كانت سطوراً عديدة جميعها تتحدّث عن الحبّ. لذلك أدرك بأنّك لن تقرأ رسائلي هذه وإن علمت أنها جميعها موجّهة إليك فلن تقرأها.

نمت ليلتها وأنا أتخيّلك والحبّ يجمعنا، ماذا تحبّ في الحياة؟ وكيف تغار؟ وهل أنت عصبي المزاج، أم إنك هادئ مثلي؟ هل ستغازلني أمام الجميع وتفتخر بي؟ هل ستعشقني بجنون؟

ونسيت ملامح وجهك الهادئة.

M. A. M

٢٨/٥

الرسالة الرابعة

ربّما غداً آخر لقاء لنا هل أراك كما عهدتك وسيماً وأنيقاً؟ هل ستضع العطر ذاته الذي كلما مرّ من أمامي طيف رجل يضع العطر ذاته، تختنق الدمعة في عيني، وأبكي سرّاً دون دموع؟

أمّا أنا فسأكون بكامل أناقتي، وأضع قبعة على رأسي ورديّة اللون كي أغطّي بضع شعيرات بيضاء فلا تراها. سأرتدي فستاناً رماديّا ونظارة سوداء صغيرة كي أغطّي كحل عيني، فلا ترى اختلاط الدمع بالكحل.

حين أراك سأقفز من على ذلك الدرج الكبير المتوضّع في منتصف المحكمة، وسأمدّ يدي، لأصافحك لعل الزمن يتوقّف وأيدينا متلامسة، لعلّ اللحظة هذه هي آخر لحظة تتعانق فيها الأيدي.

لن ترى سوى ابتسامة سعيدة، سأحدّثك عن حياة عشتها دونك ولم أنادك لتعيشها معي، سأقفز حولك مرحة، وأحدّثك وأنا أضحك كي لا تلمح دموعاً في القلب باقية.

ستنتهي مسرحيتي حين يناديني القاضي لأمثل أمامه، حينها سترى الجدّ في الكلام. ربّما كنت تفكّر بأني مازلت على عهد حبّك، باقية، لكنك ستتفاجأ من نظراتي كيف تغيّرت، ومن ثقة في كلامي لم تعهدها.

سينهي القاضي حكمه لصالحي، أعود لأرتدي نظارتي، وأسير في شوارع لم تترك لي فرصة أسير معك فيها.

لن أبكي، و لن أنتظرك، عدت غريباً كما بدأت غريباً.

* * *

تعال في جولة معي لأذكّرك بأيامٍ سبقت سنوات من الآن، كان ذلك في حفل خطوبتنا، في آخر يوم في أبريل، حيث ودّعناه واستقبلنا مايو بحبّ جديد، كنت سعيداً للغاية، لا تنكر ذلك، وكنت سعيدة مثلك، لا أخفي عنك.

أما زلت تذكر ذاك اليوم؟ لا تقل إن ذاكرتك أضحت صغيرة وتنسى كل ما سبق، فأنت تكذب بذلك،

لا يمكنك نسيان يوم كهذا. فالرجل لا ينسى حفل خطوبته الأولى وحفل زفافه الأوّل.

يا الله كم كان خجلك رائعاً! وكنت أجاريك خجلاً ولكن أقلّ منك. لم أنظر إليك من شدّة خجلي، لأنّك كنت الرجل الأوّل في حياتي فكنت شديدة الحياء، ولم أستطع النظر إلى وجهك الجميل.

مازالت نكهة التورتة إلى الآن في فمي، كانت شهيّة، مؤلّفة من طابقين مغطاة بالكريمة اللذيذة، كيف عرفت بأني أكره الشوكولا ولا أستسيغها؟ لذلك لم تحضرها مغطّاة بالكاكاو. ولكن أدركت لاحقاً أن الشوكولا لا تستهويك. ألسنا رائعين؟ ها نحن نتفق في نقطتين القهوة والشوكولا، عرفت لاحقاً أننا نشترك في أشياء كثيرة، في الحبّ والكره، وحتّى صفاتنا كانت متقاربة جدّا، كنت هادئاً وكنت أضاهيك في الهدوء ذاته، كنت كالجليد في برودته. قليلاً ما يثيرك أمرُ أو يغضبك لذلك لم أعتبرك يوماً زوجاً بقدر ما اعتبرتك صديقاً، أقاسمه هموم يومي فيطبع على جبيني قبلة دليل حبّ لا أكثر. ابتسامتك وابتسامتي حين نلتقي تحكي عن سعادتنا حين نلمح بعضنا فنكتب رسائل لا يمكن محوها من ذاكرتنا وإن متنا، ربّما ستبقى الذاكرة تطوف حول قبورنا.

لا تنكر هذه الأشياء، لم يجبرك أحدٌ على الزواج مني، أتيتني بملء إرادتك. وقلت لي بملء فيك إنك أحببت نعومتي وأخلاقي وابتسامتي هي ما جذبتك إلي. إذن لماذا سارعت إلى إطفاء هذه الابتسامة؟ التي لطالما عشقتها، أغرتك قصّة شعري الفرنسيّة القصيرة، وفستاني الأسود القصير، ولكن هل كنت تنظر إلى ما تحت الفستان فقط؟ لذلك لم يدم زواجنا سوى بضعة سنوات ليس إلا.

كنتَ كلما أتيت إلى بيتي تجلب لي معك شيئاً أهواه، كأقراص هاني شاكر المدمجة، كافة أغانيه الحزينة، وكنت أحب سماعها من فمك أنت، كان صوتك جميلاً. جلبت لي دمية على صورة دبّ أبيض صغير مازلت أحتفظ بها إلى الآن، فهي رسالة

حبّ منك لي، ورقائق بطاطس مقلية لذيذة، كلّها أشياء رمزيّة لكنها تخبرني بمدى عشقك لاهتمامات أحبّها أنا.

تبادلنا الأدوار قليلاً، وتقمّصنا شخصيات بعضنا، فمثلاً: كنت أفتح التلفاز على مباريات لكرة القدم قبل مجيئك بدقائق، ومع تخلّف ثقافتي لتلك اللعبة إلّا أنني أحاول فهم شيء منها قبل مجيئك، لأناقشك بها، وأبحث في الشاشة ساعة لأعرف من الفريقان اللذان يلعبان ومن يرتدي الأحمر ومن يرتدي الأزرق، وحين تأتي أجلس بجوارك وأستنشق عطرك الذي يشبع الغرفة بأكملها لتشرح لي تفاصيل المباراة، ومن هو فريقك المفضّل؟ تتحدّث عن اللعبة كثيراً ولا أصغي إليك. فقط أحاول أن أحبّك كما يليق بك، تنتهي من الحديث ولا أكون قد فهمت شيئاً، لعلّها نقطة نختلف فيها.

إذن من يرتدي الزي الأحمر هو مانشستر يونايتد، فريقك المفضّل، ومن يرتدي الزي الأزرق هو مانشستر سيتي، أعاندك قليلاً لتحلو اللعبة وأشجع من يرتدون الزي الأزرق مع عدم فهمي لشيء، سوى شيء واحد أنك أعطيت هذه المباراة وقتاً كبيراً، كان من المفروض أن تقضيه معي.

أشغّل الحاسوب وأضع به أسطوانة لكاظم الساهر مطربك المفضل، وبعدها أضحى مطربي أيضاً، وباتت أغانيه تروق لي كثيراً، ها هي نقطة ثانية نختلف بها، كنت تغني لي أغانيه الجميلة بصوتك الدافئ، فأغمض عيني لأسمعك وأنت تغرّد بها:

سلامي على اللي حاضر معانا

سلامي على اللي خالي مكانا

سلامي إن شاء الله يوصل سلامي

أسامي ما اريد أذكر أسامي

كان صوتك دافئاً وحنوناً. جذّاباً في كل شيء، ومختلفاً في كل شيء، ثيابك المتواضعة، وحذاؤك الرياضي العالي، البيجامة التي ترتديها حين تأتي لزيارتي مع أن

بيتك يبعد عن بيتنا حوالي الساعة والنصف في الحافلة إلا أنك كنت تفضّل ذلك على الملابس الرسميّة، كنت بسيطاً في كل شيء مما جعلني أغرم بك أكثر فأكثر.

أنا التي كنت أهرب من الحبّ دوما، وجدت نفسي وبدون مقدّمات أقع في شباك حبّك، ليتك كنت قاسياً معي كي لا أغوص في بئرٍ مجهولة الهويّة.

لم تكن غنيّا، كنت فقيراً، كنت مستعدّة أن أقضي معك حياة بأكملها نواجه الفقر، ونواجه كلّ شرّ يحيط بنا، كنت جاهزة للبقاء جوارك العمر كله، ولكن ذاك ما كان يروق لك.

هل ما زلت تتذكر ما كنت تكتب في تلك الرسائل التي بعثتها في أيام وساعات هيامنا؟ ما زالت إلى الآن في هاتفي رافضة الخروج منه، فهي دليل آخر على حبّك لي، ووعودك بالبقاء قربي مدى الحياة. لا أستطيع أن أستخرجها فهاتفي معطّل الآن، خذلني هو حين أبى أن يفتح ويقرأ رسائلك، أو ربّما أشفق عليّ ورفض إظهارها كي لا أبكيك بحرقة، ولكن يكفيني من كل هذا أن تبقى مخزّنة بداخله، تفوح منها رائحة عطر لا تنسى، فهي تذكّرني بأنك كنت يوماً إنساناً طاهراً لم تلوّثه الحياة بعد، ناصعٌ كورقة بيضاء أكتب فيها ما يحلو لي، حتى في إسعادي كنت أنيقاً.

أنا وفيّة عكسك تماماً، فما زالت تلك الرسائل بذاكرتي إلى يومي هذا (والله ما بدّلك بملكات جمال العالم) أبدلتني بواحدة أقلّ جمالاً مني وأكبر عمراً، (رح ضل حبّك حتى يلبسوني الأبيض) عن أي أبيض تتحدّث، ربّما كنت تقصد حينها ـ الأسود ـ حين لبسته في ليلة زفافك قبل سنة ونصف من الآن، ومن هذه الرسائل الكثير، لم تكن تقيّاً ولا ورعاً، ولكن الحبّ أعمى كما يقولون، وأنا كنت عمياء عن مساوئك، فكنت قد وصلت حينها إلى آخر نقطة من بحر ولهك.

سبعة أشهر من الخطوبة أليست كافية؟ لندرس بعضنا أكثر لم أتصنّع الحبّ فيها، وكذلك أنت، أخبرتني عن حبّ سابق لك مع ابنة خالتك، لم تكذب علي، حينها كنت لا تعرف الكذب، كنت صريحاً معي في كل شيء.

اعتراض والدتك على ابنة خالتك هو ما دفعك بعيداً عنها، خاصة بعد أن تزوّجت وأنجبت طفلين. ابتسمتَ حين أخبرتك لا علاقة لي بماضيك فحاضرك ومستقبلك معي أنا، ومنذ هذه اللحظة أنت لي، ولكن لم أكن على علم بمواعيدكما الرومانسيّة التي انتهت بعد زواجنا بفترات لا بأس بها.

أعدتها على مسامعك ألف مرّة، لا، لا لم يكن ألفاً بل مليون، وربّما أكثر من المليون بكثير، لا علاقة لي بماضيك، كن حاضري ومستقبلي، أو ارحل قبل أن تعلّق قلبي الصغير بك.

لم أطلب منك مالاً، ولا منزلاً يخصّنا لنعيش فيه، ولا حتّى سيّارة أستخدمها وقت حاجتي، طلبت منك حبّاً، هل هذا كثير علي؟ رسولنا الكريم ﷺ قال: (خذوهم فقراء يغنهم الله) وهذا ما حاولت مراراً أن أفهمك إياه، يداً بيد نبني مستقبلنا، ولكن لم أدرك أنّك تهدم ما أبنيه، لم أكن على علم بخياناتك الكثيرة، حتّى في فترة خطوبتنا كنت جاهلة بذلك، «وهي التي يجب أن تكون أروع فترات حياتنا»، وكنت أتغاضى لجعلها كذلك.

أتحوّل لطفلة لم تبلغ عامها الثاني لمجرّد أن تقوم بمصالحتي وتتحوّل لأبٍ حنون يخشى رؤية الدموع تجمعت في عينيَّ.

هل أبالغ في وصفك هذا؟ أم هذا ما كنت عليه حقّاً.

إذن بالله عليك؟ أخبرني حين تصلك رسالتي هذه ما الذي غيّرك؟ ما الذي حصل لتخونني مع عشرات من النساء؟ ألم أعجبك لأنني لا أنتمي لعشيرتك؟ إذن لماذا قبلت بي؟ وقبلت ببيت يجمعنا، لماذا لم تخبر الجميع أنك لن تتزوج إلا من عشيرتك؟ صدّقني حينها كنت سأرفضك رفضاً قاطعاً.

كل ما عرفته عني بأني امرأة تهيم بك ولهاً، قلبها طيّب ولا يمكن أن تخون، ولكن ما لا تعرفه، هو كبريائي الذي يفوق كبرياءك آلاف المرّات، فأنا لا أمنح حبّي لمن لا يريدني ومع ذلك منحتك إياه، وسلّمتك قلبي تنهشه كما تشاء، سلّمتك كل شيء بمحض إرادتي، وبسعادة بالغة وأنا أراك ترقص على جراحي بلؤم ذئب غدار.

أفتح هاتفك كما يحلو لي، أراقبك بسعادة وطيش، وأسرّ أكثر حين أراك تفعل ما أطلبه منك، وأتدلّع عليك كثيراً، وكثيراً ما يسعدك ذلك، فقريباً ستصبح زوجي عاشقي وحبيبي، عشقت غيرتك وخوفك الدائم علي، وإن منعتني من مغادرة منزلي إلا بإذن منك فقد كنت سعيدة لذلك.

هل كنت نعجة لك؟ كما كانت تقول لي أختي دائماً، أم هو الحب من يفعل بنا هذا؟ وأكثر من ذلك، أحببتك فجعلت نفسي جارية لك، وكنت سيّدي ما تطلبه مجاب على الدوام.

لو أنك أخبرتني أنك لن تكون لي يوما، لما كنت عشقتك إلى هذا الحد، إن هذه السعادة ما هي إلا سعادة مؤقّتة وستسحبها مني لتعطيها لأخريات، ما كنت تعلّقت بها فنسيت بأنك لم تكن لي منذ البداية.

أخبرتني بأني سأعيش مع والدتك وأخويك الاثنين، لم يكن لك بيت تملكه وإنما تستأجر، في غرفة صغيرة في بيت صغير سنصنع عائلة صغيرة. لم أعترض على ذلك، كنت أوافقك الرأي في كل شيء، أتعرف لماذا؟ حينها أخبرتك بأنّي لن أفرّط برجلٍ لم يفرّط بعائلته، وعشقت شهامتك، وأضفتها في رصيدك لأفتخر به، هكذا اعتقدت في البداية حيث كنت ساذجة حينها.

كان حضنك هو ملاذي حين أبكي وحين عبثت بي الحياة، لم أخفِ عنك شيئاً، أخبرتك بكل ما في قلبي، بصداعي المزمن الذي طالما رأيتك مشفقاً عليّ فيه وحزيناً من أجلي، وبجانبي كنت دوماً، أعدّ لك الشاي كما ترغبه فتشربه من يدي دون اعتراض منك، إلى أن تزوجّنا ورأيتك ترغب به بطريقة أخرى، تختلف تماماً عما أعدّه أنا، ولم تعترض يوماً عليه.

لا أعرف الطهو أبداً، ولكن سأتعلّمه من أجلك، كما تحبّ أنت وترغب، وسأطعمك بيدي بفرح وسرور.

لن أكون زوجتك فقط بل أمّك حين مرضك، وأختك حين شكواك، وابنتك حين عشقك، وصديقتك حين تبوح بأسرارك، سأكون أنا كما ترغب أنت أن أكون. هل هذا ما يحتاجه أيّ رجل من أيّ أنثى؟ أم أنا من بالغتُ باهتمامي الزائد بك حتى هربت إلى أخرى ربّما لا يهمّك إن اهتمّت بك أم لا، رفعت قدرك عالياً في السماء كنت نجماً لا ينطفئ، ولكنّك لم ترض لنفسك مكاناً عالياً بين النجوم لتنزل إلى الأرض بإرادتك فتدوسك الأقدام لترميك على رصيف الغدر، فما أنت سوى خائن لعوب.

اعتقدتَ بأنّك ملكتني بعقد من ورق، وبخاتم من ذهب زيّن إصبعي شهوراً عدّة بعد زواجنا لأبيعه فنأكل بثمنه كونك كنت عاطلاً عن العمل لسنوات «تذكر».

كل هذه الأمور لم أهتمّ بها فحين تناديني وتضع في نهاية اسمي ياء الملكية أطير في السماء فرحاً، أعشق ياء الملكيّة هذه، لأني وبكل بساطة عشقت هذه الملكيّة.

كعصفورة صغيرة بجناحيها طرت في السماء خائفة من ارتطامي الفجائي بالأرض، «كروميو وجوليت» كنا في عشقنا وهيامنا، وكأننا على موعد مع هذا الحبّ منذ سنوات، وكأنّني عرفتك منذ سنين لا تحصى، لم تكن مجرّد سبع شهور فقط، بل كانت كأنها سبع سنين.

مهما حاولت الكذب عليّ إلا أني في النهاية أكشف كذبك أكثر من أمّك التي أنجبتك، فهي لم تعد تعرفك كما أعرفك أنا، وأنا على تحدّ مع أي شخص في العالم يخبرني بأنه على معرفة تامّة بك أكثر مني.

فأنا الوحيدة التي تفهم صمتك وكلامك المبطّن، غضبك واحتياجاتك.

فلن يعوّضك الزمان بحوّاء مثلي، ولن تلتقي روحاً كروحي في السرّاء والضرّاء لك حبيبة، ستلتقي بنساء كثر لن يفهموك كما أفهمك أنا، لن يقاسموك أحزانك كما تقاسمته معك، ألست أنت ابني؟ وليد قلبي «أنا».

M. A. M

٣٠/٥

الرسالة الخامسة

رأيتك اليوم دون أن تراني، كنت بكامل أناقتك كعهدي بك، استوقفتك ومددت يداً لك للمصافحة كأنّك غريب لا أعرفه، حتى يدك التي صافحتني لم أشعر بدفئها، عدت غريباً إذن، غريباً عن حواء التي عرفتك أكثر مما عرفت نفسها. لمحت الحزن بادياً في عينيك، لم تستطع إخفاء تلك الدمعة التي حوّلت كبرياءك إلى ضعفٍ، وإن حاولت جاهداً إخفاءها إلا أنها استهزأت بك وقفزت من عينيك لتكذّب ادعاءاتك عن الكبرياء.

وضعتُ نظارتي السوداء كي لا ترى دموعاً في العين تدحرجت كنت مثلي، قلبك هو من رأى دموعي ولكن لم تدركها عيونك، صمتَ كعادتك ولم تتفوّه بكلمة، كان الطريق مزدحماً، ومع ذلك توقّف الزمن ربّما أكثر من دقائق ونحن نبحث لبعض عن فرصة ربّما تكون الأخيرة، ولكن شبح الفراق لاح لنا وأمرنا بالابتعاد عن بعضنا، فلست لي منذ اليوم ولن تكون لاحقاً، ومع ذلك رغبت أن تشيّع «دمشق» فراقنا، دمشق التي لم يكن لنا فيها ذكريات باللقاء، كانت لنا فيها ذكريات بالفراق، عكفنا إلى ساحة المرجة وجلسنا في مطعم فخم وهادئ، كان ممتلئاً، لا مكان لنا سوى طاولة واحدة في أقصى المطعم، جلسنا نحدّق ببعض، وكأننا نودّع بعضنا الوداع الأبدي. أكلنا ساندويتش واحتسينا قهوة ونهضنا بعدها، لتقلّنا سيّارة أجرة إلى البرامكة، وهناك ودّعتك الوداع الأخير، قبل أن تشقّ حافلتي طريقها باتجاه المزّة، وتستقلّ سيّارة وتعود بخيبة تلاها جرحُ في صميم قلبك قد حفر، تعود أدراجك إلى اللاذقية حيث تسكن بمفردك غرفة تتقاسمها أنت وصديقك، هكذا أخبرتني أنت، وصدّقتك، أتدري لماذا؟ لأنه ومن الآن لا يحقّ لي أن أسألك شيئاً عن حياتك التي تحياها.

وحين عدت إلى المنزل محمّلة بألعاب اشتريتها لطفلتينا انزويت في زاويتي في غرفتي الصغيرة، ثم عادت بي الذاكرة إلى الوراء.

هل تذكر يوم زفافنا؟

* * *

بدأت تحضيراتنا لحفل زفافنا، كنا أسعد عاشقين سيضمّهما منزل واحد وغرفة واحدة، إذن بالله عليك ما الذي غيرك؟ كنت حبيبي والذي لا أقوى على العيش بعده، والآن ما أنت إلّا غريب لا أطيق الحديث عنه.

طليت غرفتنا حينها باللون الوردي بناءً على طلبي، أدركتَ مدى عشقي لهذا اللون، ورسمت بفرشاة الطلاء أمام باب البيت على الجدار أوّل حرفين من اسمينا في قلب أحمر كبير، كنت فناناً في الرسم، رسمت خريطة فلسطين وكأّنها تتحدّث عن أرض مغتصبة، تفوح منها رائحة الزيتون، كيف لا؟ وأنت الفلسطيني في العرق والنسب.

جعلتني أميرة متوّجة على عرش قلبك، ابتعت أروع الثياب وأجملها من ألوان زاهية ترغبها أنت، وفي زحمة ما ابتعت من ملابس نسيت لوني الوردي واخترتُ لوناً فيروزياً، لم يكن من ضمن اختياراتي سابقاً، إلا أنه لونك المفضّل وهذا ما جعلني اختاره.

أخبرتك بعشقي للدراما الكورية وأبطالها وأني عكسك في هذا لا أفضّل الدراما العربية، جاريتني في ذلك، ابتسمت وأنت تنفّذ طلباتي بحبّ وعشق، ما ذنبي إن اخترت امرأة مجنونة في كل شيء، تعشق ما لا يُعشق، لهذا السبب عشقتك أنت، لكنّك كالزئبق تماماً، تفلت من يدي بسرعة رهيبة، كلّما أردت الإمساك بك أكثر أراك تفلّتّ من يدي، إلى مكان مظلم كي لا أراك.

اخترت لبنتك اسماً جميلاً ونحن ما زلنا في فترة الخطوبة، لم أعارضك لأن الاسم رائع، كيف عرفت أن أوّل ولد لك هو بنت؟ كنت تستبق الأحداث في كل شيء، ووحدي كنت المغفّلة في كل شيء. أخبرتك حين يكون لنا طفلة ثانية سأسمّيها أنا، واحدة تشبهك والثانية تشبهني، أليس هذا عدلاً؟ وأنا أيضاً مثلك استبقت الأحداث في أن يكون لنا طفلة

ثانية، أنت والدهما وأنا أمّهما، سنكون أروع عائلة نموذجية، ولكن غباءك هو ما جعلها عائلة مفككة.

إن تزوجّنا فلا تصرخ في وجهي أمام إخوتك، كن حنوناً عليّ أمام الجميع كي أفتخر بك «هذا ما صرحّت به» وأنا أناولك كأس الشاي الساخن وأنت جالس على الكرسي أمام الحاسوب تلعب لعبة السولتير، لتهزأ بي «حسناً يا أميرتي حين أنفعل منك سآخذك إلى الصحراء لأصرخ كما يحلو لي. أيروقك هذا؟» ضحكت أنا وضحكت أنت ليسقط قلبي من مكانه.

أهذا هو العشق يا حبيبي؟ إنه يبكيني كثيراً يفقدني إياك كثيراً. أتصل بك عشرات المرّات دون أن تجيب، فأذرف عبراتٍ كثيرة خوفاً عليك، ولكن ما تلبث أن تجيب بكل برودٍ بعد الاتصال العشرين لتخبرني بمشاهدتك لمباراة كرة القدم ونسيت هاتفك على الوضع الصامت، أحزن فترضيني أنت بكلمتين فقط، ابتسم لك وتنتصر، لتعاود الكرّة مرّة تلو المرّة.

أكنتُ بلهاء، ساذجة، غبيّة، أم إن الحب الأعمى هو السبب؟ فما غيره يعمي العيون؟ لم أفهم إلى الآن أين كنت تجرفني؟ قلبي البكر لم يعرف العشق قبلك، وعرف الحب على يديك، وكره الحبّ بعدك. قلبي الذي دمرّته بممارساتك الحمقاء وخياناتك اللعينة.

تهاتفني لساعات لا تنتهي، تؤلمني يدي، أحمل سمّاعة الهاتف بيدي الأخرى، يملّنا الهاتف والساعات، ولا نمل نحن من حديث العشق الذي ما إن ينتهي حتى تبدأ رسائل العشق على الهاتف مكمّلة حديث لم ينتهي بعد.

ذاكرتي أحياناً تكون قويّة. ليست كذلك في كل الأوقات، أحياناً تبدو ضعيفة، إلى الآن أتذكرك وأنت جالس، وما كنت ترتدي حينها، ولون الهاتف، والعطر الذي تضعه ما زالت رائحته في أنفي أخذت لها مقرّاً ومستقرّاً تأبى الرحيل كي لا تضيع ومع الأيام يُنسى العطر، الأحاديث كلها ما زالت إلى الآن تدور في ذهني مع الإيماءات وإشارات الأيدي وكل شيء.

تحت الشجرة وارفة الظلال كنا نجلس لنحتسي الشاي وأنفاس يوليو الحارقة تلفح وجوهنا، فسرعان ما نعود إلى الغرفة الكبيرة بمحاذاة الشجرة لتغنّي بصوتك الدافئ، وتحاول أن تمارس رومانسيّتك ولو قليلاً، ولكنّي مازلت خجلة فأهرب منك لأراك مستاءً لأنّك لم تظفر بي كما ترغب.

وقبل زفافنا بأيّام أحضن أختي التي تكبرني بعام لنبكي على فراق بعضنا، هي تبكي لافتقادي ولشوقها السابق لأوانه، وأنا أبكي حضناً دافئاً، وملاذاً آمناً، أبكي خوفاً من فشلٍ يترقّبني في حياة جديدة.

بلى يا آدم أنا من حكمت على زواجنا بالفشل قبل أن يبدأ، ومع أن زواجنا لم يكن يوحي بذلك، إلا أن حاسّتي السادسة كعادتها لم تخنّي، مع أنّك لم تكن ذاك الرجل القاسي الذي تخشاه النساء، كنت حنوناً ورومانسياً ومبالغاً في اهتمامك بي، إلا أنّني كنت أخشى هذا الزواج.

كنت كريما في كل شيء في الغزل والحب والمال، لم أطلب منك شيئاً إلا تسارع لتلبّيه، هادئ الطباع، حسن المعشر.

أكرّر لك في رسالتي الخامسة هذه، أنّك لن تقرأ مما كتبت، لن تقرأ رحلة عمرنا وشقائي معك في بيت لم نبنِ منه لبنة واحدة.

حين بدأت مشاجرات عائلتينا حول حفل الزفاف، أين سيقام؟ ومن سيحضر؟ ومتى سيقام؟ وكيف سيغدو؟

حينها قلت لي إن كل تلك الحفلة البلهاء التي تقام لإسعاد أناسٍ لا نعرفهم، لا تهمّك بتاتاً. ما يهمّك هو أنا، أنا فقط حتى لو اختطفتني كما في الأحلام، هل تدرك كميّة السرور التي أدخلتها على قلبي آنذاك! سأخبرك الآن بعد مرور ست سنوات وثمانية أشهر بسعادتي التي كانت أنت، أنت فقط. أدركت حينها مدى عشقك لي وهيامك، أجبتك حينها جواباً مماثلاً وأنا لا يهمّني من تلك الحفلة سواك. مع أن سعادة الفتاة الأولى ارتداؤها للثوب الأبيض إلا أني كنت عازفة عنه كرمى لحبّ جمعنا.

كعادتك التي لا تخلو من الهدوء، وبساطتك في كل شيء، تركتني أرتّب كما يحلو لي ولم تسألني عن التفاصيل بتاتاً، ولم تقحم نفسك بكل ما أفعله.

أشكرك من كل قلبي على كميّة السعادة والحبّ اللتين أدخلتهما إلى قلبي آنذاك.

M. A. M

٣٠/٥

الرسالة السادسة

عدنا غرباء إذن.. فهل لك أن تتعرّف إلى حواء مجدّداً، لعلك تبتعد عن زلّات هي السبب في فراقنا الأبدي.

الآن أستطيع إخبارك بكلّ ثقة وأنا أراجع قائمة الحظر في حسابي لمحت اسمك في أوّل القائمة، بدون تردد أزلتك من القائمة، أتدري لماذا؟ لأنّك عدت غريباً لا أعرفه، فمن أنت لأتابع صفحتك باستمرار. وإن كنت لا تنشر فيها إلا نادراً.

* * *

أتذكرك تلك الليلة كما لو حصلت البارحة، كانت ليلة مميزة، كيف لا؟ ونحن بتنا معاً لا يفرقنا سوى موتٍ محتوم، هكذا ظننا في البداية. كنت خجولاً كعادتك التي سرعان ما تخلصت منها باعتبارها عادة سيئة، كنت أفوقك جرأة. على عكس كثيرٍ من الفتيات اللواتي يتصنّعن الحياء في أيام هذه، ربّما يعود ذلك إلى دعوة فرحٍ ضمنت اسمينا، وبيت ضمّ قلبينا.

كان ذلك في نهاية نوفمبر، دُهشتُ حين سألك القاضي عن موعد عقد قراننا فأجبته سريعاً، في نهاية نوفمبر، لم أبد لك دهشتي، ولكنني صعقت حين فاجأتني بالجواب، وأنا التي كنت أعتقد أنك تنسى مواعيد فرحنا التي جمعتنا. «أول لقاء، يوم الخطبة، عيد ميلادي، عيد زواجنا»، كنت لا تعيرها أيّة أهميّة، على عكسي أنا التي حاولت جاهدة أن نصنع من هذه الأيّام أيام فرحٍ، إلا أنني لم أفلح بذلك.

وقّعنا سويّا عقد حبّنا في نهاية نوفمبر لنبدأ ولادة سنة جديدة تشهد هيامنا..

أنت وحدك يا حبيبي، من أردت إعطاءه قلبي كاملاً. دون أن ينقص من حبّي له شيئاً.

في غمرة عشقي لك، نسيت ذاتي، نسيت أن أعشق نفسي، كنت جاهلة في أمور كهذه، جاهلة بما سيأتي، نسيت زماناً سيأتي وترحل فيه لتبقى نفسي بجانبي تواسيني

على فراقك لكن ماذا أفعل بقلب لم يكن ذنبه سوى أنّه تاه في هيامك؟ ولم يرجع بعد إلى جادّة الصواب. عشقتك أنت فقط، أنت وحدك السيد، أمير قلبي..

بدأت أيّامي في منزلك كأيّ عروسٍ جميلة تحتل قلب زوجها، وكنت كأيّ رجل يتمنى لو يهب عمره كلّه لعروسه ويتعهد لها بحبّ لن يضمحل.

شهرٌ كاملٌ وأنت ماكث في غرفتنا تسمعني كلام غزلٍ لا أملّ منه، لم تكن تخرج من البيت إلا لماماً، فقط لشراء حاجيّات المنزل، كنا نخرج مترافقين دوما، أتأبط ذراعك ونتجوّل في شوارع دمشق، التي سرعان ما غادرناها بفعل الحرب، دون أن تسارع ذاكرتنا لحفظ أماكن تجوالنا بها مررا.

نسهر معاً حتّى الصباح بين ضحكات، وابتسامات، عشق وهيام، قبلات وعناق، ليت تلك الأيام تعود، ولكن للأسف، إن عادت فلن تعود معها.

إلى أيّ درجة عشقتني حينها؟ ربّما لأني كنت الوحيدة في حياتك، لذلك لم تبخل عليّ حين سلّمتني مفاتيح قلبك، لنهيم عشقاً بحبّ لم يكتب لنا.

أستطيع مصارحتك الآن بكل شيء ترغبه أو لا ترغبه، حينها عشقتك أكثر مما ينبغي، لم أعتد على خشيتك كباقي الزوجات، اللواتي يخشيّن أزواجهن كما كنا نشاهد معا في الدراما الدمشقية القديمة التي تحكي واقع نساء يرون أزواجهن كأنهم وحوش لا أزواج وكنّ كجاريات إن صحّ القول. في حين كنت أعدّك صديقاً وحبيباً وزوجاً وأخاً وأباً. لم تكن سجّاني بقدر ما كنت فارسي، لم تخنقني غيرتك، كنت رجلاً لطيفاً وحضارياً، تركتني لأحيا كما أشاء وأرغب دون أن تقيّد معصمي بقيود من عادات بالية.

لي الحق في قطعِ أميالٍ عديدة للذهاب إلى عائلتي دون إخبارك، وإن علمت بذلك فقلّما تعاتبني.

كنت تظهر حبّك جليّاً أمام عائلتينا دون حياءٍ، انكسر خجلك حال زواجنا فبتّ الرجل الضحوك على الدوام.

لا تنكر أنني كنت حبيبتك على مدى ثلاث سنوات وكنت حبيبي أيضاً. كنت لي وحدي. فما الذي غيّرك؟ لم أدرك حينها أن لك قلباً كبيراً واسعا كوسع الفضاء، يتّسع لنساء الكون قاطبة.

لماذا لم تخبرني حينها بأنك زير نساء؟ كنت أغلقت قلبي ومنعت أمثالك من عبوره، ومنعت قلبي من الانصياع لقلبك، لأهرب منك إلى نفسي التي أهملتها إكراماً لحبّك، والآن وقد وقع المحظور، وقع ما كان سيقع عاجلاً أم آجلاً، كيف ستستعيد مكانتك في قلبي وقد انتهت صلاحيتها؟

تهمس في أذني (أحبّك) على مدار أربع وعشرين ساعة، ليقفز قلبك فرحاً حين تراني فرحة، وأهمس بدوري بالكلمة ذاتها للمرة المئة بعد الألف.

ربي حقق أمنيتي أخيراً، حين جمع بين قلبينا، وإن كنا لا نعرف بعضنا من قبل، جاء من يهيم بي عشقاً ويكتب لي سطوراً من حبّ كنت أظّنه لا ينضب، ولكنّه «للأسف نضب»، جاء من أتوه بعشقه وأتوجه أميراً على قلبٍ كم تمنيت ألا يجرحه «لكنّك جرحته»، لم أدري ما كان يخبئه القدر لي حينها. ولم أكن أدري أن الأيّام التي جمعتنا هي نفسها الأيّام التي حالت بيننا.

كنت تعشق الصمت أكثر من الكلام، وكنت نقيضتك في ذلك، أعشق الكلام كثيراً، كنت أسرد لك تفاصيل يومي بدقّة لا متناهية، وكأنّها هاربة من نشرة إخبارية. كنت تتهمني بالثرثرة فأصمت وأصمت أصمت، وحده الصمت من يجمعنا، قلبي لا يستطيع البعد عنك، فأقرر قراري الألف ألّا أتحدّث إليك بتاتاً، ولكنك تضمّني معتذراً فيهوي قلبي في بئر حبّك مجدّداً، وأعود لمحادثتك بكل شيء، وكأنّي تلميذة بليدة في مدرسة ابتدائية لا تفهم من مدرّسها جملة واحدة، لتعاود تكرار أخطائها الواحدة تلو الأخرى، ظناً منها أن المدرّس سرعان ما سيغفر لها جميع زلّاتها.

كنت على الدوام تقول لي إنّك رجل أفعال لا رجل أقوال. إذن لماذا لم تفعل شيئاً حيال فراقنا؟

كم ليالٍ نمتها على صدرّك متوجّسة من فراق يكتب لنا عاجلاً أم آجلاً، تنهمر دمعتان رغماً عني، تحسّ بهما كنار حارقة تلهب صدرك، أبكيك ألا ترحل، فتربت على شعري وتمسح دمعتيّ الهاربتين من عينين تخشيان غدرك. تفنّد أوهامي التي لا أساس لها من الصحة. هكذا كنت تخبرني حين ألمح شبح الفراق واقفاً لنا عند الباب ويغمز لي بعينه اليمنى وكأّنه يهزأ بي.

أدمنت فقرك، حتى أصبح جزءاً مني، تلك الثلّاجة التي كنت أفتحها مئات المرّات في اليوم، ولا أرى سوى بقايا طعام الأمس «أدمنتها».

كنت سعيدة مع عائلتك التي مع الأيام صارت عائلتي، تخليت عن مبادئ ما كان يجب التخلّي عنها، تخليت عن أفكاري، ومعتقداتي وحتى عادات بلادي، كل شيء أصبح جائزاً، لأنك أردت ذلك.

ربّما تنازلاتي الكثيرة لك هي السبب في هروبك مني إلى أخرى لا تتنازل لك للأمر اليسير، «أعتذر لك»، هو خطأ مطبعي ليس إلا، هروبك إلى أخريات لا يتنازلن لك مطلقاً، كان يجب أن أكون مثلهن وألّا أتنازل لك ولو كان الأمر يسيراً.

M. A. M

٥/٦

الرسالة السابعة

لم أغر من ابنة خالتك مطلقاً، مع أنها أخبرتني في الأيام التي سبقت زواجنا بعلاقة غرامية جمعتكما معاً، إذ خانتك فتركتك وتزوجت رجلاً غريباً لا تعرفه، ربّما يعود ذلك لرفض والدتك دون سبب يذكر، ومع أنّها خانت زوجها لتعود إلى أهلها ويسارع ابن خالك في الزواج منها. إلّا أنها بقيت على علاقة معك بعد زواجها الثاني وإنجاب طفلين أحدهما من زواجها الأول، والثاني ثمرة زواجها الثاني، المحادثات التي رأيتها في هاتفك المحمول كانت جدّ عاديّة، لم يكن شيء منها يوحي بخيانة ما، إلّا أن خيانتك كانت تقام في السرّ لا في العلن، بعيداً عن أعين تترقّب بكما لتشي بقصتكما وتعلنها على الملأ، ولكنك كنت أذكى مما كنت عليه، كانت تجمعكما أزقّة دمشق الضيّقة وحواريها المظلمة. لم أكن على علم من استمرار علاقتكما حتّى وأنتما متزوّجان. أتدري الآن بعد أن خذلتها أنت وتزوجت باتت تعشق أخاك الأصغر. أتراها وهي في سرير زوجها بمن تفكر في زوجها، أم بك، أم بأخيك، أم ربّما هناك رجلُ آخر يرضي أنوثتها أكثر منكما.

حسنٌ، أنا نقيّة جدّاً، أسابق الأطفال في براءتهم، طاهرة من كل خبث ورذيلة، لم أعرف ما هو النفاق بعد، ولكن على يديك تعلّمت الكثير. كنت جاهلة بمجتمعكم وعاداتكم التي تحلل للمرأة عشق رجلين أو ثلاث بينما هي في فراش زوجها.

ذات يومٍ وأنا جالسة تحت النافذة التي تطلّ على شجرة الكينا الضخمة التي تحجب الطريق عنّي، حادثت خالتك في أمورٍ شتّى، فنصحتني بالحفاظ عليك خوفاً عليك من نسوة كهذه، أيعقل هذا؟ أن تخطب الفتاة لنفسها عريساً وأن تغازل شاباً يبيع في حانوته ولا تعرفه أو أن تطيل النظر إلى شاب يعبر الشارع فيخجل الشاب ولا تخجل هي. هكذا

هي عاداتكم ومع أنّي حاولت جاهدة الانخراط في عالمكم إلّا أنّي فشلت، وقفت لي مبادئي بالمرصاد.

حاولت أن أُنسيك إياها بمزيد من التنازلات، ومزيد من الحب والاهتمام والحنان. إلى أن أخبرتك ذات صباح ونحن نتناول فطورنا أنّ لك في أحشائي طفلة، تمنيتها شبيهة بك في كل شيء لأعشقها مرّتين، الأولى كابنتي، والثانية لأنّها توأمك. تابعت معي أشهر حملي شهر بشهر، بحبّ واهتمام ورعاية أبوية، تمنيتها شبيهة بي، اخترت لها اسماً كما اتفقنا من قبل، تتفحص ما ابتعت من ملابس لها، تتخيّلها تحتمي في أحضانك الدافئة هرباً مني. وجاءت طفلتك إلى هذه الدنيا شبيهة بي، ولم ترث منك أي شيء، كلّ ما فيها يدلّ على أني أمّها.

أحببت ابنتك أكثر منّي، عشقتها ودللتها كثيراً، لاعبتها أيّاماً وأيّاماً، خبأتها في أحضانك خائفاً عليها، مم تخاف عليها؟ لا أدري، كلّ ما علمته أنّها استطاعت أن تسرق حبّك مني وأنا راضية سعيدة، ابتعت لها ألعاباً وملابس كثيرة، رعيتها في مرضها وسهرت على نومها المتقطّع، كنت حنوناً عليها كأمّها لا كأبيها. وكنت سعيدة بذلك، كيف لا؟ وأصبح لي طفلان، أنت طفلي الكبير، وهي طفلتي الصغيرة.

كانت خيانتك وابنة خالتك هي الأولى لك، وأشهد الله ـ أني سامحتك حينها، وسامحتك اليوم وغداً فقط على هذه الخيانة، أمّا تلك الخيانات فلا قدرة لي بالمغفرة. جعلت الله حكماً بيني وبينك على ما فعلت بقلبي، جعلته شاهداً على جراحي النافرة منك التي بدورك رقصت عليها وحدك. وحدك فقط من استمتع بتلك الجراح، وفتحت عليها زجاجة كحول لأرقص من الألم، بينما أنت تستمتع بالمشهد، لتشقيني وتشفي ذاتك.

دقّت طبول الحرب في وطني، وبدل أن تتماسك أيدينا، هربت يدك وتاهت في الزحام لأتوه بدوري باحثة عنك فأجدك ولكن دون قلب، أتراه سُرق منك حين كنت تبحث عن نساء أخريات؟ أم تراه ضاع في زحمة الحرب؟ التي بدأت ولم تنتهِ، كنت أريدك معي ضدّ الأيّام السوداء التي نشأت بفعل الحرب التي كانت بانتظارنا في وسط الدرب، لكنّك كنت أنانياً بالفطرة وتفكّر بذاتك فقط كمن يقول: أنا ومن بعدي الطوفان.

وركضت الأيّام لاهثة نحو مجهول ربّما ننساه وربّما نتذكره في أيّام شقاءنا.

ونسيت خيانتك لابنة خالتك وعدنا كقيس وليلى نعشق بعضنا دون غاية، إلى أن جاء ذاك اليوم؛ كنت تستحمّ حينها، وجدتها فرصة لأفتّش هاتفك فأجد رسائل من فتاة غريبة لا أعرفها، ليست ابنة خالتك! من تكون إذن؟

حزن قلبي حينها لأنّه أمّنك على ذاته فخذلته مرّة أخرى، حين أنهيت استحمامك، لم أتريّث، سارعت إلى معاتبتك بدموعٍ غشيت مقلتي، انهلت عليك بأسئلة كثيرة، وحدك من يعرف أجوبتها، لم أسحب منك أيّ جواب صادق، كلّ أجوبتك ما هي إلا كذبة تكذبها كي لا تخسرني.

قلت لك حينها إنّي أغار إذا ما اقترب أحدهم من أشيائي، وأنت جزء من أملاكي لا يحق لأي أنثى سرقتك مني، حينها سأقاضيها بتهمة سرقة كنز الغير، وسأربح القضية، وبعدها سأتركك في حال سبيلك، فإمّا أن تكون لي، وإما ألا تكون لأحد، نفيت كل ما نسب إليك من تهم وبرّأت نفسك من كل التهم، قلت لي حينها إنه صديقك ليس إلّا، وإنك أحبّبت ممازحتي قليلاً ولكنّي عرفت من يكون، أتراني غبيّة لأصدّق كذبة كهذه. ولكني صمتّ وفي قلبي بركان يغلي. سأريك كيدي الذي لم تره من قبل، ستعرف حواء جديدة، لا تلك التي تعرفها، أنا أنثى مع من يكون معي رجلاً.

أتدري ما فعلت حفاظاً عليك وعلى بيت أراه يتهدّم قبل أن يبنى، أكرّرها حفاظاً عليك، إلى هذه اللحظة لم أفكّر سوى بك. حذرّتك من تسامحي وغفراني الكثير، لأنّه سيأتي يوم كما اليوم لا أستطيع فيه سماع اسمك. للطيبة وقت صلاحية تنتهي بعده، وللغفران وقت ثم ينتهي، وللحبّ رصيد ينفد. لكن حين انتهت الأوقات وجدتك وقفت على بابي تبكي امرأة وهبتك عمراً من الحبّ فوهبتها عمراً من الوجع.

ذهبت إلى بلدتي في زيارة قصيرة إلى عائلتي، وجلست وأختي نتحدّث بأمور كثيرة، فتطرّقنا إلى الحديث عن تلك الخيانة الأخيرة، أخذت أختي الهاتف منّي ودوّنت الرقم الغريب وطلبته لتجيب بسرعة فتاة، كان صوتها رقيقاً، أخبرتها أنّ لك زوجة وطفلة هي بحاجة لرعايتك الأبويّة. نفت الفتاة أن تكون لها علاقة بك، وكأنك علّمتها ما تقوله.

أغلقت الهاتف بوجهي بعد أن صرخت بملء فيها أن لا علاقة لها بك. وعادت تحادثك ليالي انتهت سريعاً ولم تكمل قصّة حبّك الصغيرة.

هل نسيت أنت هذه القصّة؟ أنا لم أنساها ولن أنساها، فكيف لي نسيان غدرك؟ الذي طال وامتدّ إلى حين فراقنا.

هنا أيضاً سامحتك، لأنّي أردت مسامحتك ليس إلا. قلتُ في داخلي هي نزوة وستنقضي، أنت رجلٌ جيّد لكنّ الفتاة هي من أغوتك، واثقة في ذلك.

كيف أتصرّف وأنا أرى فتاة لا أعرفها تسرقك مني، لن أكون مثالية وذات مبادئ لا طائل منها فأقف على عتبة الفيس بوك لأصرّح أن الرجل الحقيقي لا يسرق فاتركيه لها، لا تهمّني هذه المصطلحات التي أدرك تماماً من كتبها، هي نفسها تركض وراء رجلٍ لا يكترث بها، وإلّا لما خرجت بحكمة كهذه. أخبرتك مراراً بأنّك لي ولن تكون لغيري. ولكنّك كنت لنساء الأرض كلهن ما عداي.

أتدري ما فعلت حينها؟ تعال واجلس قليلاً دون أن تتفوّه بحرف لأخبرك، وإياك ومقاطعتي، أعطيت رقم هاتفها لأختي التي بدورها أعطته لصديقتها، التي أعطته لصديقها الذي يحادث عشرات الفتيات في اليوم، ويعجبه كل يومٍ أن يحادث حسناء جديدة، ليوقعها في شباكه عامداً متعمّداً، إلى أن يملّها، فيفلتها ليبحث عن أخرى.

وأنهت علاقتها بك، لم تعد تردّ على اتصالاتك، تركتك ما إن لاح طيف شاب فهامت به لتتركك وحيداً على رصيف ذكريات لم تنشأ بعد.

سررتُ وأنا أرى انجازاتي باستعادتك إلى ملكيّتي من جديد، ولكن غاب عن فكري أنّ قلبك بات يبحث عن أخرى ثم أخرى ثم أخرى.

وماذا عنّي أنا؟

بحقّ السماء أخبرني لماذا كنت حينها غاضباً من فراقك لفتاة فاسقة لا يهمّها قلبك؟ ما يهمّها هو اللعب بك، كنت لك حلالاً، وكانت لك حراماً.

لماذا بتّ تبحث عن غيري؟ لماذا؟

M. A. M

٨/٦

الرسالة الثامنة

أعلم أنك لن تفكّر بفتح هذه الرسائل ولا يهمّك معرفة مضمونها، ستقول لي بملء فيك أنجزي ما كتب فيها، وإن كنت ترفض ما أقول جملةً وتفصيلاً، وتعدّ نفسك إلهاً لا يمكن معاتبته أو زجره، فما تفعله هو الصحيح بعينه. لن تفكّر بلمس رسائلي، فقراءة رسالة هاتفية من سطرين تستفزّك فكيف بقراءة رسائل طويلة جميعها تتحدّث عن خياناتك التي لا تنتهي.

وضعت كأس الشاي جانباً لأشرع بكتابة أفكار تسلسلت في ذهني تخصّك وحدك، أتدرك أنّ مذاق هذا الشاي يستهويك؟ فهو كما تفضّله.

وحين شرعت بكتابة السطور الأولى من رسالتي هذه. اقتحمت أختي غرفتي لتخبرني أنك حادثتها وطلبت منها رقمي الجديد أو أي حديث تنشئه، لماذا بعد أشهرٍ من القطيعة تعاود الاتصال بي مجدّداً؟ هل هناك أحاديث لم تنهها بعد؟ خيانات لم تفعلها بعد؟ سكاكين تطعن قلبي بها؟ ماذا تريد منّي؟ ومن طفلتين بائستين نسيتا أن لهما أباً في هذا الوجود.

عدتُ غبيّة كما بدأت حياتي معك، احتفظت برقم هاتفك، أخذته من هاتف أختي خلسة دون أن تراني، فمازلتُ أدّعي الكبرياء، وقلبي يدّعي الشوق، ولكن ما رأيته من صور تضعها على الواتس من غزل وحبّ، أحرق قلبي الذي مازال غبيّاً ومتيّماً بك. ربّما هناك أخرى دخلت حياتك، أو ربّما هي ذاتها من اختارها قلبك دون عقلك. إذن بالله عليك لماذا تتصل بي بعد أشهرٍ من القطيعة؟ لتريني صورة تمثّل حبّك الجديد. لتهزأ بي أكثر مما فعلت.

* * *

بعد اندلاع الحرب، رأيناها وهي تحصد أرواحاً لا ذنب لها، ثم هربنا منها إلى الجنوب خوفاً على أرواحنا من نار مستعرة كادت تحرقنا وتودي بنا. كنت خائفة عليك أكثر من خوفي على ذاتي، وفي الجنوب عشنا قرابة عشرة أشهر بين خصام لا ينتهي ووعود بحبّ جديد يطرق حياتنا لتقفل الباب في وجه الحبّ، فأفتحه وأستقبله وحده دون أن تكون معه.

هل تتذكّر أيامنا هناك كيف كانت؟ وكيف جعلتها أنت أياما ولياليي سوداء؟ هربت من جحيم الحرب لأقع دون قصد في جحيمك أنت وما بين الجحيمين هوى قلبي دون قصد مني، لماذا؟ وكأنّ الأسئلة في رسائلي كثيرة وتبحث عنك لتجيب عنها، تركت عائلتي ومشيتُ معك في درب بعيد جدّاً عن موطني، يدك ما زالت في يدي وكأنّك تخشى شيئاً. أهو الهروب أم ماذا؟ مشينا معاً وعاهدتك ألا أنظر خلفي كي لا تنهمر دموعي اشتياقاً لعائلة طيبة تفتقد وجودي بينها، كنت أخبّئ دموعي عنك كي لا ترى ضعفي، فأنا سأكون جيشك إن احتجت إلى جيش، وأمك إن افتقدت أمك، وطفلة إن أردت لعباً.

لم يعجبك أن أقوم أنا بهذه الأدوار جميعها فهربت مني إلى أخرى مجدّداً. لأسافر وحيدة مع طفلة صغيرة عمرها لا يتجاوز الشهور إلى دمشق لتحتويني وتحتوي حزني وخوفي منك ولأهرب منك ومن جحيمك الذي بات لا يطاق، أمكث أسبوعاً في دمشق، أحاول نسيانك فأفشل، تتصل أختك بي لتخبرني بلحيتك التي نمتْ بعد فراقنا وأنت من يحب أن يحلقها باستمرار، كيف تركتها تتمرّد عليك لتنمو بغفلة منك؟ وأنت تفكّر بفراقنا، أختك هي من تتصل لا أنت، تبّا لكبرياء قادر على سلبك عائلتك كلّها وأنت واقف تتفرّج كأنها مسرحية أمامك. أصدّق ما تقوله أختك وألملم حقائبي على عجل لأستقل أول حافلة باتجاه الجنوب، أعود إليك محمّلة بشوقٍ كبير فألمح برود عينيك تثقب الحجر.

ربّما نسيت ذاك اليوم الذي اتصلت بي وأنا في دمشق لتخبرني بوجودك ووالدتك في مدينتك القديمة وتجبرني على العودة إليك كي ترى والدتك طفلتنا الصغيرة. أخبرتك حينها بصعوبة الأمر بوجود طفلة صغيرة في حضني لا تعرف السير بعد وحقيبتين كبيرتين معي. ومع ذلك أصررت على مجيئي إليك.

وحين وصلت إلى أبواب مدينتك القديمة اتصلت بي أختي كي تمنعني من دخولها فقد كان شتاء مدينتك قاسياً يا آدم . لم يكن مطراً . بل كان وابلاً من قذائف لا ترحم أحداً. وضعت الحقيبة على الأرض وجلست عليها، أخبرتك برفضي لدخولها. حينها صرخت في وجهي كي أدخلها فقط لترى والدتك طفلتنا، ولكنني كنت خائفة من دخولها والحرب على أشدّها. لم تكن تأبه بأصوات الانفجارات تلك، ما كان يهمّك هو ألا أعصيك. وإن كان على حساب أشلائنا. صرخت في وجهك لن أدخلها ما حييت، لن أموت فيها، لن أسمح لقذيفة لا أعرف مصدرها أن تقتل طفلتي. أخبرتك بذهابي إلى بيت أختي في المدينة المجاورة ومن أراد رؤية طفلتي فلن أمنعه، مدينتك محرّم عليّ دخولها وإلى الآن لم أدخلها ولن أدخلها، اتصلت بي بعد دقائق لتخبرني بأنّك هربت ووالدتك إلى مكانٍ آمن فلا أدخلها، تبّاً لأنانيتك التي كادت أن تقتلنا جميعنا.

هنا عند هذه النقطة من حياتنا تغيّرت جزئياً، الصياح في وجهي دوماً على أسبابٍ تافهة، حتى دون أسباب تذكر، فقط لا يروقك رؤية وجهي، تكسر الكأس التي كانت بيدي لأني سألتك ماذا بك؟ كأنّك تحمّلني مسؤوليّة ما يحدث في الحرب، وكأنّني أنا من أوقدها والمسؤولة عن إخمادها ولم أفعل!، ربّما كان غضبك حينها ناجماً عن عدم خروجك من المنزل كثيراً بسبب حظر التجوال، ولربّما لابتعادك عن منشئك الأصلي. ولكنّك كنت محاطاً بأحباب لك وأهل وعائلة، أما أنا فلا عائلة لي هناك في الجنوب تحتويني، ثلاث ساعات في الحافلة تفصلني عن عائلتي ولم أشتك لك، ولم تر دموعاً في عيني تحجرت.

فقدت وطني يا آدم ونسيت أنك لن تكون لي وطناً.

غابت عن ذاكرتي أن تكون أعمالك الأنانيّة معي هي خيانة ثالثة وقفت بين علاقتنا، كانت خيانتك الثالثة تلوح في الأفق وكان حينها قلبي أعمى فلم ير شيئاً.

أكنتُ غبيّة إلى هذه الدرجة؟ حتّى لا أشمّ رائحة هذه الخيانة، ربّما لو انسحبت من حياتك حينها لكنت تجاوزت الكثير من الخيانات، ولكنت أكملت حياتي مع طفلتي دونك. وكانت الأيّام حينها كفيلة بأن تنسيني إياك.

عاملتني وكأّنني جارية، ولم أكن حبيبة يوماً، صبرت من أجلك كثيراً، وكثيراً جدّا، ابتهالاتي، دعواتي كانت لك وحدك، دعوت خالقي أن يبقيك حبيباً لي طوال عمري، فأبقاك حبيباً أحتفظ به، ولكن سرعان ما غاب الحبيب ليبقى الحبّ وحده يقض مضجعي.

لم أكن تلك المتطلّبة دوماً، كنت أريد منك أن تكون رجلاً ليوم واحد، وهذا ما لم تستطع تحمّله أنت، ربّما هو طلب من المحال عليك تحقيقه، ولكن ليست لديّ طلبات أبسط من هذا الطلب، هل أطلب منك ألّا تكون أنانياً في حبّنا؟ ألا تكفّ عن حبي؟ هل أطلب منك عهداً بالبقاء بجانبي طوال عمرك؟ كلّها طلبات لن تتحملها، أعلم ذلك وأصمت.

حين أقول لك إني أكره الجنوب ولا أحبّه فهذا لا يعني أنّه سيء، بل لأنّ حياتنا كانت أسوء فيها، لأنّك أنت كنت الأسوأ فيها. حلتَ أيّام كنا سنعيشها برخاء لولا طيشك إلى أيّامٍ سوداء.

غاب التسامح هنا، وانتهت المغفرة، تجاوزت حدود مغفرتي، لا طاقة لي بعد اليوم بالغفران، حاولت الصفح عنك ولكنّ خياناتك تجاوزت موسوعة «غينس»، خيباتي منك قتلتني وأحيتني مرّات عدّة.

سنتان مضتا على زواجنا فقط وخياناتك باتت لا تطاق، إذن ماذا تركت لسنوات قادمة؟ كنت رائعاً في كل شيء ونسيت أن تكون رجلاً.

مازلت إلى الآن أتذكّر تلك الأيّام التي رحلت لتغرق في قاع المجهول فيبقى منها فقط من هو عالق في الذاكرة، كانت فتاة من جنسيتك، تحتضنا بلداً مجهول بالنسبة لكما، ولكن لهجتكما وعادتكما لم تكن مجهولة، انتماءكما إلى أرضٍ واحدة، هو ما جعل تقاربكما سريعاً هكذا. أنا بنت الأرض التي نشأتَ بها... ناسيةً أنّ لك وطناً آخر تنتمي إليه إن ضاقت عليك الأوطان. أنا بنت هذه الأرض، أصبحتُ غريبة عن بلدك وعنك أيضاً. ولكن بتّ مثلك بلا وطن، فهل تحتضن خيبتي لتكون لي وطناً، وليعود وطنك وطناً لي، وبالمقابل سأعطيك وطني لتحيا به من جديد.

M. A. M

١١/٦

الرسالة التاسعة

كأس «الكابتشينو» مازال في يدي يحرقها ولا أبالي، فشمس يونيو كانت السبّاقة في اللهيب، لهيبها يكوي أضلعي، تمددت على ظهري أحاول النهوض كي أستعيد قوّتي فعبثاً أحاول، حملت هاتفي لأغوص في عالمي الافتراضي لعلّي أنساك ولو قليلاً. ولكنّك كالمغناطيس، كلّما حاولتُ نسيانك أراك تجذبني إليك. كيف السبيل إلى نسيانك دلّني؟

صورة للحبّ وضعتها لك قديماً منذ أربع سنوات على حائطي الفيسبوكي، ومن ضمن التعليقات كان تعليقك بارزا مشعّاً كما نور الشمس، يناديني أنا كنت حبيبك تعالي وأقرأني (الله لا يحرمني منك) عبارة ربّما هي بسيطة، لو كان البيت الذي فارقناه ما يزال يجمعنا. ولكنّها مؤلمة حدّ الألم، طالما لا بيت يجمعنا ولا لقاء الله حرمك مني ولكن لا ذنب لله في غدرك، أنت السبب فيما حصل وما سيحصل. لم أذرف الدمع حينها ولكني لمحت دموع قلبي انسكبت شلالاً. لم أعلّق على المنشور خشية أن يظهر في أماكن أخرى، فيرى أصدقائي حبّاً كان صادقاً يوماً ما، وتبدأ الشفقة والتعاطف تظهر وهذا ما لا أطيقه البتّة.

ولكنّ هذا المنشور أبى تركي وشأني، لاحقني النهار بأكمله ساخراً من ضعفي، شامتاً بدمعي، فلم أستطع مقاومته وانسكبت دموع عيني وحدها، ليس حبّاً لك، ولكن إكراماً لحبّ جمعنا. أخرجت ما في قلبي من ألم وقهر كبتّه في قلبي أشهراً وها هو يخرج على شكل قطرات لا أهميّة لها بالنسبة لك، كنت قد تظاهرت بالقوّة أياماً، أخبرت الجميع أني امرأة لا تسقط بل تنهض واقفة تهزأ بالجراح التي أدمت قلبها، ولكن هذه العبرات كذّبت كلّ ما كنت أدّعيه جرّاء «منشور» صغير عاد من الماضي.

بدا نومي متقطّعاً، لا يمتّ لنوم الأحياء بصلة، لم أعرف ما سرّ هذا القلق الذي انتابني هكذا دون مقدّمات، قلق ينتابني بشكل هستيري دون أن أعرف لماذا؟

* * *

أيامنا التي قضيناها في لبنان في الشمال كانت عسيرة عليّ ويسيرة عليك، وكأنّ جبال لبنان وبحره أعطتك الإذن في الولوج أكثر والانخراط بدهاليز الخيانة التي كان يصعب عليك الخروج منها، جبالها كانت شاهدة على جراحي منك ورأتك تتراقص على تلك الجراح بنشوة الانتصار.

هناك ضمّنا بيت صغير ليس لنا، عائلة كبيرة احتواها ذاك المنزل الصغير، أنا وأنت وطفلتي والدك. عمّتك العجوز وابنتها وولداها الاثنان وزوجة ولدها وأطفالها الثلاثة. أهذا بيت؟ أم مأوى للاجئين؟، الهاربين من جحيم الحرب ونارها. لم أعترض على سكن كهذا، لأني أعلم حالتك الماديّة جيّداً، ولا يمكنك استئجار بيتٍ لي يخصّنا وحدنا، رضيت بالإهانات بصمت لم أعتده. لاعتقادي رجع آدم الحبيب العاشق، ولكن سرعان ما خاب أملي، فآدم إن ذهب لا يعود، كنت متمرّداً ثائراً علي، أأغير كتب التاريخ المستقبلية لأجلك؟ أحذف منها راء الحرب لننعم بالحب ما حيينا، هل كنت أحاربك في تل أبيب لتثور عليّ وحدي؟ لماذا لم تتمرّد سوى على حواء؟ التي لا تملك سلاحاً تشهره في وجهك لتدافع عما تبقّى لها من أنوثة.

رغبتُ ببساطة العيش، حصير يضمّنا وفوقنا سماء مرصّعة بنجوم مشعّة، لا تغيب مهما غابت الليالي، تهديني نجمة كل ليلة، وأخبئها بعيداً في سماءٍ ثانية، بعيدة عن قمر يعدّها ملكاً له. اعذرني فما هي إلّا أحلام بسيطة ليس بينها وبين الواقع صلة، لم أطلب منك شيئاً سوى بضعة أحلامٍ أنت بطلها.

أصبّر نفسي كل يومٍ على كلام عمّتك العجوز وابنتها الذي لا يطاق، عسى أن يكون الفرج قريباً، كيف يكون قريباً وجبال لبنان باتت تبتلعك بعيداً عنّي، حتّى بتّ غريباً، لا نعرف بعضنا سوى أننا بخير، كنت تشاهد ما يحدث وكأنّي لم أكن لك حبيبة يوماً، كأنّه لا عقد زواج يربطنا، كأنّ الأمر برمّته لا يعني لك شيئاً.

أتتذكر تلك الغرفة؟ التي كانت لنا في ذاك المنزل الصغير، كانت بثلاثة جدران فقط، لم يكن لها جدارٌ رابع، ومع ذلك كانت تأتي ابنة عمّتك الكبيرة في السنّ لتسهر

معك وتتغزل بجمالك الذي بات يفتنها، ولا تفعل ذلك إلا بعد أن تتأكّدا من نومي، علام تخشيان؟ إن كنت تغازلها على مرأى مني وكأنّي أختك لا زوجتك.

أنا غبيّة، كنت غبيّة، لم أصرخ بوجهك حينها: كفى إذلالاً. لست عشيقة لك ترميها حين تقضي حاجتك منها، بل أسمى من ذلك، «أنا زوجتك» ما كان يمنعني من الصراخ في وجهك؟ ربّما خوف على ذاتي أن تبتلعني جبال لبنان فلا أقوى بعدها على النهوض.

انزل إلى طرابلس ـ عاصمة الشمال ـ تتركني أنزل وحدي دون أن ترافقني أو حتّى تقوم بوداعي، والدك كان يتكفّل بكل شيء، وكأنّه على علم بما يحدث فيهرّبني منك إلى مكان أكثر أمناً، أزور أقارب لي من عائلة أمّي، أقضي هناك أيّاماً.

ربّما لم يخطر ببالك أن تسأل لماذا كنت أهرب منك حينها؟ إن كنت لا تعرف بعد أنّ هذا يعدّ هروباً.

في طرابلس أبكي وحدي أياماً بلياليها. لم تشفع لك غربتي ووحدتي ودموعي وحبّي، آدم الذي كانت تقهره تلك الدموع ويمسحها بحنان عاشق مات قبل أن يعبر الحدود، آدم اختفى، ربّما مات مع من ماتوا، من أنت إذن؟ زير نساء... لماذا أخرجت من جعبتك ذاك المتوحّش الذي ما كنته يوماً؟ ربّما ليريني إياك على حقيقتك التي لم تتغيّر من وقته.

لم أكتف بعد، اصبر قليلاً لأكمل ما بدأته فدناءتك تجاوزت الحد، وصل بك الأمر إلى التحدّث مع عشيقتك أمامي، وتتحدّث وابنة عمّتك عن زواج لك مرتقب.

وأنا من أكون؟ هل أنا جدار أصمّ؟ هل أنا طاولة برجلٍ واحدة؟ هل أنا سرير مهمل في زاوية حجرة ضيّقة؟ أم من أكون أنا؟

لماذا تحتقرني هكذا؟ أخبرني بالله عليك ماذا فعلت بقلبك لتجرح قلبي هكذا؟ دناءتك هنا بدأت. واستمرّت إلى حين انفصالنا.

ربّما صمتي هو ما دفعك إلى الانخراط في عالم الرذيلة سرّاً وجهراً. كان الوضع صعباً جدّاً علي. كان لزاماً عليّ أن أصمت، أن أخرس، لا حبّاً فيك، بل لأنّك ماهر في إمساكي من اليد التي توجعني.

غريبة في دولة غريبة، لا نقود بحوزتي، ولا سبيل لعودتي إلى دمشق، ليتني حينها هاتفت والدتي كي تأتي لاصطحابي بعيداً عن حقارتك التي بدأت ولم تنته. كان الأمر سينتهي هنا ويوفّر علينا مشقّة حياة كنا فيها متباعدين أكثر مما كنا متقاربين.

تذهب إلى المقاهي وحدك، تدخل عالمك الافتراضي المحذوفة منه أنا، فيعطيك هذا الحقّ في إضافة من تشاء وترغب من نساء، تتحدّث ساعات مع عشيقتك دون أن تتذكّر حواء التي تركتها وحيدة بدمعة يتيمة على خدها إثر شجار بتّ تفتعله كل دقيقة.

عمّتك وابنتها تزوران يومياً عمّتك الثانية التي لا يبعد منزلها عن منزلنا بشيء. أبقى في البيت وحيدة، لا.... لم أكن وحيدة كان هناك ابن عمتك الشاب الطويل الذي تنافسه طولاً «أنت»، ألم تكن تغار منه؟ ويحك! كيف لا؟ والشيطان ثالثنا، كان الشاب خلوقاً ومؤدّباً، لا نتحدّث بتاتاً، ولكن الشيطان كان ماهراً في الإغواء بشدّة.

أعمتك النساء ونسيت زوجة تحتاج إليك، نسيت زوجتك في بيت وبلد غريب، تحت سماء غريبة، وحين عودتك تسارع ابنة عمّتك للجلوس بيننا فتتحدّثان عن تلك العشيقة التي ستصبح لك زوجة مع الأيّام، ومع أنه كان ينقصك الكثير لهذا الزواج أوله وآخره المال، الذي لم تكن تمتلك منه شيئاً.

تبّاً لك من رجلٍ لا يشبه الرجال في شيء، عارٌ على الرجال أنت، لا تستحق اسم رجلٍ يطلق عليك.

في محاذاة ذاك الوادي الواسع، وفي جبال لبنان جلست وحدي، أحصي خيباتك المتلاحقة، أحاول لملمة ما تبقّى مني، كي لا تسرقه مع الأيّام، ولا سبيل للاحتفاظ بذاك الجزء الذي بقي من خيباتك.

جبانة أنا، لم تكن لدي الشجاعة الكافية لأخرج من حياتك بلا عودة، وباختصار كان حبّك يميتني ولا يحييني. أفهمت ما أعني؟ لماذا لم تحاول أنت فهم ذلك؟

أخبرني بالله عليك هل قصّرت في واجباتي باعتباري زوجة لك؟ لماذا تعاملني هكذا؟ هل سئمت من اهتمامي بك؟ ولكنك وليد قلبي، حبيبي الذي كنت أحبّه، كنت أتمنّاك ملكاً أفخر به.

أحادث أهلي فأحكي عن مآثرك الجميلة وخصالك الرائعة، وأتغاضى عن تلك النزوات، باعتقادي سيأتي يوم ما وتكون قد مللت هذه القصص فتعود عاشقاً من جديد.

آدم تغزّل بي، ابتاع لي، يعشقني، قبّلني، هكذا كنت أجمّل صورتك أمام عائلتي، وكنت على نقيض ذلك، أنانياً لا يهمّك طفلة تحتاجك، ولم أعد من ضمن أولوياتك.

كنت كرة قدم على قارعة طريق مليء بالحفريات، تركلها متى تشاء، لأقع في حفرك الكثيرة، وسرعان ما تأتي بكرات أخرى، لتلعب ويحلو اللعب.

تتفنن بالرقص على آلامي أنت وعشيقاتك، وخياناتك بتّ لا تخجل منها وتعرضها على الملأ فخوراً بها دون أن يعتريك أدنى خجل، نسيت كل ما فعلته حواء لك وبدلاً من شكرها، تقابل إحسانها بإساءة.

أتدري بأني دعوت الله قرابة خمس سنوات أن يهدي قلبك لنبقى على العهد سويّاً، دعوت الله مراراً أن يجمعني بك في جنّة خالدة، أتدري الآن وقد تغيّرت دعواتي، أخبر الله عنك بكل شيء، أشكو له ظلمك، تنساب دموعي وأنا على سجادة صلاتي جالسة أحدّث خالقي عن آلامٍ اجتاحتني منك، وها قد قارب رمضان على الانتهاء، لم يمضِ يومٌ فيه إلا دعوت خالقي أن تحتلّ قلبك امرأة وتفعل به أضعاف ما فعلته بقلبي، فأنا من رفعت من قدرك ولم أكن أدري أن أمثالك يتمنون البقاء في الطين.

أخبرتك حينها أنه إن دخلت امرأة من الباب خرجت أنا من الباب نفسه وفي التوقيت ذاته، لا أحتمل وجودي في حياتك مع أنثى منافسة.

أخبرتك حينها ستعشق الكثير، ستغرم بالعشرات، لكنك ستعود للحضن الأوّل، لن يكون هناك امرأة تهبك الحب ذاته الذي وهبتك إياه.

كنت رائعاً معي وكنت أروع، كنت قاسياً فسامحني لأني سأكون أقسى، أنا من ضلعك خلقت، أتعرف ماهيّة هذا الكلام؟ يعني أنّي أعطيك أضعاف ما تعطيني إياه، وبدوري سآخذ منك أضعاف ما تأخذ مني.

كنت رحيماً بي، حنوناً، طيباً، كريماً، دافئاً، عطوفاً، وكنت مثلك في العطاء وأكثر منك كرماً.

فلماذا بتّ تلوم شخصيّة حوّاء المتمرّدة التي أنشأتها أنت بغدرك وخيانتك؟ هي حصيلة إنجازاتك، أنت من غيّرني ومن جعلني هكذا. ولدت شخصية حواء الجديدة هنا، بعد أن دفنت شخصيّة حواء القديمة كما عبرت أنت الحدود بعد أن قتلت شخصيّتك القديمة.

ثمان وعشرون يوماً فقط في تلك الجبال، كانت كفيلة لإذلالي أياماً، لأحتقرك وأكرهك سنين لا تغتفر، عرفت حينها أنّك لم تعد لي سنداً، ضاع سندي في بلاد الياسمين، تلك الذكريّات السيّئة مازال قلبي يئنّ لها كل حين.

أعطيتني دروساً في القوّة والشجاعة، أشكرك ـ عرفت حينها أن حياتي لن أرهنها لك، لن أعتمد عليك في أي شيء. كنت شرّاً في كافة الأوقات، لم تكن خيراً أبداً.

أقابل صمتك القاسي بالصراخ عالياً في وجهك، تصمت لأن الجواب يغيب عن ساحتك، تعرف أنّك المخطأ ولكن هيهات أن تعترف بذلك، لم تقل شيئاً، بل صممّت أكثر على الصمت، لتهين كرامتي أكثر مما أهنتها هناك. وبالفعل أهنتني، وضيّعتني، آلمتني، أحرقتني، وعذبّتني، وقهرتني، فعلت أكثر من ذلك، فقط لأنّي منذ البداية صمتّ بالوقت الذي كان يجب فيه أن أصرخ، ومنذ خيانتك لي مع ابنة خالتك كان يجب عليّ أن أفتعل ثورة ضدّك، كان يجب أن أتمرّد عليك، فقط كي تمتنع عن خيانة أخرى.

صمتّ حينها لأنها حبّك الأول، وفي الثانية لأنّها نزوة، وفي الثالثة لأنّي في غربة، وفي الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة. أيعقل أنه استفحل الغباء بي إلى هذه الدرجة؟ لماذا لم أصرخ حتّى في التاسعة؟

لأنني كنت مريضة بك حينها. حينها كانت حياتي لا حياة فيها دونك، كنت أهرب منك، فتبعث لي برسائل عشق وهيام. يذوب قلبي بين أضلعي، وأعود مبتسمة إلى سجنك البارد وأقفل الباب على نفسي بالمفتاح وأرقص معك على جراحي الملتهبة، أساعدك على نحري من جديد، أعطيك السكّين ذات النصل الحاد لتنحر كما يحلو لك، فلا تنسى أن تسمّي حين تنحر بهدوء، لتهين كرامتي كما ترغب بمباركتي وأنا التي أساعدك في كل شيء.

موقفي ضعيف، في غربة لا أعرف بها أحداً، بعيدة كل البعد عن ياسمين دمشق، بيننا حدود لا يمكن عبورها بالأمر اليسير، موقفي الضعيف هو الذي جعلك شرساً إلى هذه الدرجة.

انتهت مغفرتي يا آدم...

لن أسامحك ولو وقفت أمام باب الجنّة لاهثاً تطلب مغفرتي، سأخبر ربّي حينها عن جميع آثامك بحق قلبي وسنيني التي قضيتها في خياناتك.

يغمرني الحزن الآن، لأنّني أفتّش في زوايا الماضي وخفاياه عنك فلا ألمح لك أثراً.

أتأمّل قلبي الهشّ قليلاً فألمح دموعاً تبكي من كان مصدر سعادتها يوماً وأحاله القدر إلى مصدر حزنها.

وبغبائك أحرقت سنين من العمر الرائعة.

M. A. M

١٣/٦

الرسالة العاشرة

من أين أتتني جرعة الشجاعة هذه لأتذكّرك في الليلة آلاف المرّات ولا ينفطر قلبي لذكراك؟ يمرّ في ذهني شريط غدرك فأصبّ عليك لعنات جمّة، وأعود لكرهك مجدّداً وكأنّك لم تسعدني يوماً.

ها أنت بتّ تتصل كل يومٍ لا اشتياقاً لي وإنّما اشتياقاً لطفلتيك، الآن تذكّرت أنّهما من صلبك، في كل مرّة يتراءى لي شبح الماضي لتعبر منه أنت وحدك للحاضر وكأنّ عاصفة هناك هاجت بك، وحملتك بعيداً إلى أعالي السماء وهوت بك إلى أديم الأرض، فارتطم رأسك بصخرة قاسية أفقدتك ذاكرتك، في حين أتذكّر تفاصيل حياتنا الدقيقة جدّاً.

لم أعد أراقبك كما في السابق ولم يعد يحلو لي اللعب معك، لم يعد يهمّني من تكون، كنت رائعاً في ماضي حياتي ولا أنكر ذلك. ولكن اعذرني الآن. من حقّي أن أعيش مثلك بلا ماضٍ، يجب علي العيش في حاضري، والتنبؤ بمستقبل لن يكون لك أثر فيه.

* * *

متأكّدة أنا... بأنّك لم تنس غرفة صغيرة احتوتنا، أنا وأنت ووالدك، محيطها ثلاثة أمتار بثلاثة أمتار، منافعها تحت درجٍ قديم، دون مطبخ، ذات واجهة مصنوعة من زجاج، مما دعاك لإحضار ورق لاصق ولصقها عليها، ربّما كانت حانوتاً فيما مضى، ولكن زيادة الطلب على البيوت من قبل اللاجئين، جعل الناس أصحاب الحوانيت يؤجّرونها مقابل ثمن لا بأس به.

لم أشتك من ضيق المكان من سكن كهذا ومن قلّة الموارد ومن رائحة الفلافل التي تزكم الأنوف فتعبق المكان كلّه، وابنتي لم تتجاوز بعد عامها الثاني، كان طعامنا بسيطاً وقليلاً، ومع ذلك كان شهيّاً، مواردنا المالية نفدت، ولم تعثر على عمل بعد. مع ذلك ما كان لنا سوى الصبر، فصبرتُ أنا، ومنعتك الحياة من الصبر.

لم يكن لي ذنب بذلك، أردتُ الهروب فقط من نارٍ تكوي أضلاعي ولا ترحم ومن جوٍ خانق يخنق أنفاسي، حيث كنت أنت من يحبس الأوكسجين في يده. أردت الهروب من رياح هوجاء كادت تفتك بي، ووحدك من نفخ بها لتكبر وتلحق بي.

لم أحتمل استهزائك بي أنت وابنة عمّتك، تضحكان وتغمزان بعضكما، نسيت أني لك زوجة، تناسيت كل شيء في لحظة مرح وضحك، ربّما تناسيت متعمدا كل شيء، لم أكن أدري لم فعلت هذا بي؟ كل الذي علمته فيما بعد أنّك كسرتني دون أن تلملمني، جرحتني دون أن تداويني، حطّمت قلبي دون أن يرفّ لك جفن، من أين أتيت بتلك القسوة؟ التي بانت في عينيك الحمراوين، تبّاً لك حين تقسو، تصبح عيناك أشدّ احمراراً من وهج جمر ملتهب.

من هنا بدأنا نسير في درب الكراهية، أنت مخيّر وأنا مسيّرة، لا أملك حقّ العودة، ولا حقّ الهروب، كبرت كراهيتك في قلبي لتداوم على سقايتها وشمس غدرك التي اعتنيت بها، وماء حقدك يرويها، تكاثفت كراهيتك لتحيل قلبي إلى دخان كثيف من نار شبّ حريقها ولم يخمد.

حين تعاتبنا لأوّل مرّة في هذه الغرفة، وكنت حينها أجهّز نفسي للخروج من حياتك للأبد، أخبرتك بثقة عالية أنّني من اتصل بتلك الفتاة الحمقاء لأخبرها بحقيقتك التي غفلت عنها، هي فتاة عاقلة لا ترضى أن تكون السبب في دمار عائلة لا ذنب لها «إن كان رب بيتها أخرق»، صرفتك من حياتها دون أدنى كلمة منها بعد أن قدّمت لي بياناً من الاعتذارات الطويلة.

كعادتك بعد كل خيانة اعتذرتَ لي وتأسّفت وندمت، وحلفت أنك لن تخون مجدّداً. إذن أين يمينك من خياناتك الأخرى؟ آخر خيانة لك يا آدم! وماذا تسمّي تلك الخيانات؟ نزوة عاشقٍ!!

حسن إذ لن أرحل، سأبقى زوجة وحبيبة إن كنتَ عدت إلى رشدك، بعد أن أفرغت جعبتك من الاعتذارات. عدت حبيباً لي كما في السابق، وهذا ما أطلبه منك فقط.

تذكرّت حين ضاقت الدنيا في أعيننا الصغيرة، فخرجنا من تلك الغرفة الخانقة ولا سبيل إلى طريق ندركه، كل الطرق سدّت في وجهنا، مشينا لا ننوي على شيئاً، لا ندري إلى أين نسير؟

هل تتذكر ذاك المكان الذي جلسنا فيه؟ تحت فناء شجرة كبيرة، لا أتذكّر اسمها الآن، ألم تكن كافية خمس سنوات في لبنان أن تنسيني؟ ولكن كلّما مررت من هناك أتخيل جلوسنا على الرصيف وظل الشجرة يحمينا من وهج الشمس الحارقة، كأنّ الحادثة لم يمض عليها سنوات، لتعود لي ذكراها بتفاصيلها الصغيرة، (ضاقت فلمّا استحكمت حلقاتها، فرجت وكنت أظنّها لا تفرج) كنت أرددها وأنا جالسة معك، بقلبي أرددها وكأنّ الفرج قاب قوسين أو أدنى مني، أمّا أنت فقد امتلأت عيناك بالدموع التي ابتلعها قلبك ليذرفها بدلاً من عينيك الصغيرتين، رأيت الحزن بادياً جليّاً في عينيك الحمراوين، كنت حينها حبيباً صادقاً بريئاً، كأّنك لم تخنّي يوماً.

كيف لك أن تصير هكذا شخصيتين منفصلتين؟ كل واحدة تبعد أميالاً عن الأخرى، كلّ واحدة هي نقيض للأخرى.

ثلاثة أيّام دون مأوى، بسبب مشاجرتك ووالدك وعلى أثرها تركنا الغرفة الصغيرة، ليته كان منزلاً كبيراً، ما كنّا تشاجرنا حينها، في الليل نبيت عند أصدقائنا، وفي النهار نسير في كل الدروب دون أن يعطف علينا درب واحد.

تحملّتُ الجوع والعطش والفقر والمرض معك والتشرّد، لكنني لم أستطع تحمّل الخيانة، كل شيء كان يسيراً عليّ تحمّله، لم أصرخ ولم أبك ولم أهرب منك.

عجباً يا آدم!! أتنسى أيّاماً كهذه!!

كيف لا تتذكّر؟ حين تحمّلت معك أشياءً كهذه، قاسية عليك، كيف كانت عليها إذن؟ ولكنّها تحمّلتها بابتسامة لم تفارق محياها.

كيف شكرتها؟ حين غمزتك أول أنثى بطرف عينها المليئة بسواد الكحل، هرولت إليها متناسياً ما خلّفت وراءك من أشجان.

في كل سني عمري معك لم تتلاش ابتسامتي. أيامي القاسية التي عشتها معك وأنا أساعدك على الحياة لم أنسها، ولن أندم عليها، لم أخبرك يوماً بأنّي أمقت فقرك مقتاً شديداً، بل كنت أشدّ على كلتا يديك بيدي الصغيرتين لأعاهدك عهداً ببقائي معك طوال سنين حياتك، بحلو الحياة وبمرّها باقية على عهد حبّنا.

لم أكذب عليك، كنت صادقة في كلّ كلمة قلتها وأدرك ما أقول، تعترف بصدقي، وتدرك تماماً حواء التي احتوتك وجعلتك وليد قلبها لا تكذب، وكنت أنت لا تكذب، هكذا اعتقدت في البداية، لكن كذبك فاق التوقّعات كلّها، لتخرج على الجمهور ويعلنك ممثلاً بارعاً، ولكن للأسف لم يكن هناك جمهور سواي.

في هذه الغرفة التي جلسنا فيها قرابة الشهر، تحمّلت فيها سخرية الجميع بنفس راضية، كان يهمّني فقط راحة بالنا ولكنّها للأسف كانت صعبة ولا وجود لها بسببك.

حين تقرأ رسالتي هذه «ولن تقرأها» أخبرني وأخبر نساء الأرض قاطبة من ترضى العيش في غرفة كهذه، غرفة بُنيت على شارع، ووالدك معنا وكان صعب المراس وكنت تدرك ذلك، والكل يدرك الأمر ذاته، إلا أنني لم أعترض وصبرت وتحمّلت كل شيء في سبيل سعادتك، لن أهجرك، وسأصبر معك إلى أن تفرج، فرجت يا آدم... وهجرتني أنت.

لماذا فعلت ذلك؟ كنت أخطط لمستقبل يجمعنا ثلاثتنا أنا وأنت وطفلتنا، لكنّك كنت تخطط لمستقبل وحدك، لا وجود لي فيه، يجمعك بنسائك كلهم ولا يربطني بك.

بالله عليك أجبني عن أسئلتي هذه؟ وبعدها ارحل إلى حيث لا أراك، إلى حيث لا وطن يجمعنا.

أكان الأجدر بك أن تطرق باباً مغلقاً وتفعل به هذه الأشياء؟ لماذا لم ترض بواحدة من نسائك تشاركك حياة الذلّ والهوان؟ لماذا ترتضيني أنا لتعطيني دوراً كهذا في مسرحيّتك؟ التي كثرت فصولها ولم تنته.

تبّاً لك... وتبّاً لي ألف مرّة لأنّي قابلت خياناتك الأولى بابتسامة، بدلاً من هروبي حينها منك قبل أن أرافق خياناتك كلّها، وأتوسّد وسادتي وجزءاً من ذاكرة جريحة لأبكي

وأنام بعد أن يتورّم جفناي جراء تلك الدموع التي كادت تحرق وجنتي لو لم أوقفها، كانت دموعاً حارقة ألهبت جفني فاحمرا واشتعلا جمراً ملتهباً.

أتدري؟ من واجبي أن أختار لك اسماً في رواياتي لتكون بطلها... سأختار مالكاً، أتدري لم؟ لأنني أحببته لدرجة جعلته يشاركني الحرف الأول من اسمي الذي أعشقه حين يلفظه أيّ كان، وكرهته لأن مالكاً يريد أن يملكني ولا يريد الاحتفاظ بي، أو إعطائي وعداً بحب لا ينضب مع الأيّام. سأتفنن في تعذيب مالك كما يحلو لي.

أليس غباءً منك أن تختار كاتبة لتجرحها؟ هي لا تملك لساناً يا مالك ولكنّها تملك قلماً.

M. A. M

١٨/٦

الرسالة الحادية عشر

أتخيّلك الآن وقد ذهبت إلى البيت وحيداً محمّلاً بذكريات تثقل كاهلك، وحيداً ليس معك سوى صورٍ لا روح فيها، خالية من أصحابها، تدلف إلى الداخل وتقطع الممشى المظلم لتصل إلى غرفة في أقصى اليمين، بابها خشبي مغلق بلون بنيٍّ، تفتحه ببطء، خائفاً من اختفاء ما بداخل الغرفة من ذكريات للحبّ كانت، تخلع حذاءك وتنظر إليها، كيف كانت وكيف أضحت!، خالية من الحياة ومن الحب ومن ضحكات من كانوا فيها وغادروا، تفتح الخزانة وتتراءى لك بقاياهم، تغلقها وتتكمش على ذاتك، تخرج من أعماقك صرخة وجع وخوف وماضٍ لن يعود.

وفي الليل تنام على وسادتك وتجلب وسادتي المحمّلة برائحة عطري، الذي كان فيما مضى يبهرك، تحتضنها ومن ثم ترميها في الفراغ. تنام مغمض العينين خائفاً من دمعة تغدرك وتنسكب لتفضح اشتياقك. هنا كانوا وهنا كانت لهم ضحكات لا تنتهي.

في الصباح تستيقظ وكأنّك ما زلت في عالم آخر، تحاول أن تستحضر ليلة أمس وكيف جرت، لتدرك أخيراً أنّك في منزل الماضي. تناديني بأعلى صوتك كي أصنع لك إبريقاً من الشاي، فيرجع صدى صوتك هامساً في أذنك (ما عادوا هنا). تقف مترنّحا كثملٍ لم يفق بعد، لتصنع الشاي، فتجد السكّر قد نفذ، ولا أثر لكيس شايٍ واحد، تضع الإبريق جانباً، وتقف مسنداً ظهرك إلى جدار بات لا يسمع شكواك، تضع كفيّك على وجهك لتغطّي نحيبك، وتنزل رويداً رويداً إلى الأرض لتلتقطك الأرض جاثياً على ركبتيك لتخبرك (ما عادوا هنا).

أفقتُ من أحلامي وأوهامي لأتذكّر كرهي الشديد لك الذي ولد من رحم حبّ عاصف قاسٍ.

أذهب إلى ذاك المحامي ذي الشعر الأبيض لأخبره بقرار انفصالي عن حبّك، وأتفق معه على موعد للخلاص منك بسهولة ويسر. أأبكي ساعة فقط وبعدها أكفكف دمعي وأمضي في طريق لا أراك فيه.

وتحت شمس يوليو الحارقة كنا قد خرجنا في توّنا من عيد الفطر، أول يوم لدوام الموظفين والعمّال، الازدحام شديد، أزمة مرورية خانقة في شوارع دمشق كافة، مع أننا استيقظنا على ثلاثة تفجيرات والعديد من القذائف الصاروخية التي دكّت المدينة صباح ذاك اليوم. كلّ ذلك لم يمنع الناس من الخروج لمواصلة أعمالهم، وكنت أنا من بينهم، لم أخش تلك الحرب اللعينة التي حاولت أن تدخلني جحيمها ولم تستطع، اجتزت مسافات بعيدة كي أصل إلى القصر العدلي، وأتفق مع المحامي على جلسة وداع لك تليق بغدرك، حدّدها القاضي في ٢٠١٧/٧/١٧ أليس موعدنا مميزاً يا حبيبي، حتّى في الفراق نأخذ موعداً لا ينسى بسهولة، ليبقى في الذاكرة جرحاً عميقاً قد حفر، هذا التاريخ أجمل من تاريخ ارتباطنا، فهو أوّل موعد لنسيانك.

سأخبرك سرّاً... تبّاً لي ها أنا أكشف أسراري لك. ولكن لا يهمّ أن تعرف في اللحظات الأخيرة من الانفصال ما كانت أفكّر به، خلال رحلتي إلى القصر العدلي تجمّع الدمع في عيني كلآلئ تخشى الهرب من مكمنها، أبكي ذكراك القديمة فيَّ وأنت لاهٍ في بقعة من هذه الأراضي، كلّما حاولتُ نسيانك والبدء من جديد تقفز أمامي ذكرى هاربة منك لتتشبّث بي ترجوني ألّا أنساها، حتّى التفاصيل الصغيرة كنت أعوم فيها ولا أخرج منها إلّا مكبّلة بأصفاد حنينك.

أخبرني بالله عليك من تكون؟ لتبقى في قلبي خالداً، كلّ هذه المدّة، خياناتك، غدرك، هجرك، كل ذلك وأنت مازلت عالقاً في قلبي ترفض الخروج منه، مع أنّ قرار الانفصال أنا من اتخذه دونك، إلّا أنّني كلّما مشيت في هذا الطريق أعود للبكاء من جديد، أمقت نفسي وحنيني وحبّي لك وقلبي حين يذكرك.

لماذا فعلت بقلب أحبّك وذاب فيك هكذا؟، علّقت قلبي بقلبك وغادرت، رحلت فجأة دون أسباب ودون وداع. كغيمة محمّلة بحبّات المطر. أمطرت على واحة في صحراء

مقفرة فأثمرتها، ورحلت إلى اللاشيء. انتظرتها الواحة أن تعود لتثمر من جديد. ولكنّها فضّلت طريقاً بعيداً لا سبيل للرجوع فيه. كنت غيمتي وأثمرت بفضل أمطارك، إذن لم رحلت وتركتني أذبل؟ أتراني أستحقّ الذبول؟

أتذكّرك قبل سنين من الآن ومع خياناتك التي لا تنتهي كنت رجلي الأوّل، تعلّمت الحبّ منك، وتتلمذت على يديك، لتتركني كتلميذة كسولة تندب حظّها على قارعة طريق مجهولة.

تدفّق الدمع من عينيَّ لا إراديّاً، وأنا أدرك أن مشروع انفصالنا بات قاب قوسين أو أدنى. ولكن ربّما أحتمل عذاب تلك الساعة التي ستلي فراقنا، لكنّها ستكون آخر ساعة فراق.

لاحت لي خياناتك كشريط سينمائي يدور، عدت لأمسح تلك الدمعة وأربت على كتف ذاتي فلا شيء يستحق.

* * *

لم أنس بالطبع بيتاً في لبنان جمعنا على مدى خمس سنوات من الألفة لم تخل من مشاحنات صغيرة وكبيرة. تعالت ضحكاتنا، بكيت كثيراً على كتفك وحدتي فيه، توسدت حضنك ونمت... تشاجرنا كثيراً، ولكن... لم يفرّقنا الخصام، كنّا نمرح مع بعضنا كي ننام دون أحقاد، أحياناً أسارع لاحتضانك كي تعفو عني، وأحياناً تسارع لاحتضاني بقبلة حانية، وبعناق أبويّ حار أبتسم وتعود لمجاراتي بغزلٍ لا ينتهي بسرعة. أرأيت امرأة في هذا العالم الكبير بمثل هذه البساطة والطيبة. بابتسامة ترضى. كيف لا وما في قلبي سوى حبّك يا من كنت حبّ عمري.

البيت لم يعجبني، لكن لم أشتك منه يوماً، راضية قنوعة بما قسمه الله لنا. كان بيتاً مهجوراً، منذ سنين لم يضع أحد قدمه فيه، لا أبواب ولا نوافذ ولا منافع داخلية ولا حتى بلاط، كان هيكلاً فقط لم يشبه البيوت في شيء، ومع كل هذه المواصفات فيه، لم أنبس ببنت شفة، رضيت بنفس تأمل الأفضل ولا سبيل للأفضل، لأجلك صبرت

ولأجل أن يبقى حبّ عمرنا نجمة لا تخمد، أنا وأنت وطفلتنا الصغيرة، جاءت مؤسسات معنيّة بحقوق النازحين، وقدمت أبواباً ونوافذ، ومنافع داخليّة رائعة. وبقينا على هذه الحال إلى أن حال الفراق بيننا.

لم أطلب بيتاً كبيوت العامّة أرتاح فيه، أبسط ما يكون فيه بلاط كي لا تخدش الأرض الخشنة أقدامنا. في كلّ ليلة تتركني وحيدة فيه أقوم بعدّ الطوب في الجدار والسقف، أمنع عني شبح الملل فأقوم بالتسلية واللعب مع الطوب وأقوم بعدّهم، وفي كلّ مرّة أخطئ العدد، نسيت الآن كم كان عددهم وكم واحدة في كلّ جدار، مع أنّ مغادرتي لذاك البيت من سبعة أشهر فقط لا غير، ألّا أنني نسيت.

اشتقت للبيت، هل اشتاقت روحك إليه أيضاً؟ هل تعود الآن لتخبرني عن عهد حبّ قطعته لي فيما مضى، أم طواني النسيان يا «عزيزي»، وأصبحت عابرة سبيل دخلت حياتك بإرادتك وأنجبت لك طفلتين، فهربت منها بإرادتك أيضاً إلى أخريات لا ينجبن.

عشت مع عائلتك ولم أتذمّر يوماً، والدك وأخيك، لم أخبرك يوماً بأنّي أحب العيش في منزل يحتوينا أنا وأنت فقط، هذه أبسط حقوقي كانت ولم تمنحها لي ولم أطالب بها، كنت أعيش مع عائلتك كعائلة لي احتوتني، واعتبرتني ابنة بارّة بها، كلّ عائلتك أحبّوا ذلك، ما عداك أنت.

تمنيّت في هذا المنزل حياة جديدة؛ خالية من الخيانة والغدر، لم أبك يومها أمامك اشتياقاً لوطنٍ تركته مذبوحاً، ولأهلٍ تركتهم في دائرة حربٍ مستعرة، بكيت وحدتي وخوفي وحنيني وغربتي دون أن تلمح تلك الدموع. لم نكن نملك هاتفاً يخصّنا فكنت أقطع الحارات ليلاً كي أصل إلى مقسم الهاتف فأطمئنّ على عائلتي وأعود إليك سعيدة، دون أن تعلم أين كنت؟ ولا يخطر في بالك أن تسأل عن غيابي.

وجدت نفسي ملكة هذا البيت المهجور، سيّدته الأولى، لي الحقّ في فعلِ ما يحلو لي، دون اعتراض منك، وجدت فيه لحفاً بالية صنعت منها عشرين وسادة، أخبرتك حينها أنه ربّما تأتي عائلتك هرباً من تلك الحرب فتجد ما تنام عليه، افتخرت بي، وسررنا حين جاءت عائلتك واستنفدوا جميع الوسائد.

بدأنا صفحة جديدة من حياتنا في هذا البيت، وكأننا خلقنا من جديد، حياة فقر بدأناها. نواسي بعضنا علّنا نتحمّل قسوتها، جهّزنا منزلنا بكافة الأدوات المنزليّة والأشياء الضرورية، وامتنعنا عن شراء الكماليّات.

عاد الحبّ يا آدم فاتحاً لنا أبوابه فدخلناه مجدّداً لننهل من فيضه ونذوب فيه ونسكر حدّ الثمالة.

صار البحر قبلتنا نذهب إليه لنشكو آلامنا، كنت أشتكي منك وكان يسمعني، وأنت كنت تشكوه أيضاً؟ أهديتني وردة حمراء على ذاك البحر أتتذكر ذلك؟ لم تخجل من البحر وهو يطالعنا مبتسماً، في أحيانٍ أخرى كنت تخجل وكأنني حبيبة لك في السرّ تعشقها. لا زوجة في العلن تحبّها. ربّما تعوّدت على العشق في السر فنسيت الحبّ الحلال في العلن.

وعلى ذاك الجبل الواسع قضينا أروع أيّامنا، التي لم يفلح الزمن أن ينسينا إياها. لن تعود تلك الأيّام يا آدم. وإن عادت فأنت لن تعود.

هل انتهت خياناتك عند هذا الحد؟ لا لم تنته. ما خفي كان أعظم.

اشتريت هاتفاً جديداً لي ولك، أحببت طيبتك، آخذ الهاتف متى أردت لأهاتف عائلتي في الوطن وأطمئن عليهم. كنّا حينها عاشقين، أشياؤك هي أشيائي، وأشيائي هي أشياؤك.

ولكن انتهى الحب سريعاً ها هنا، حين استيقظت في تلك الليلة الصيفيّة الحارّة لأرتشف قليلاً من الماء، كان ذلك في الساعة الثالثة فجراً، هرب النوم من أجفاني ورحل مثلك، أخذت الهاتف من جوارك لأتصفّح حسابي، فرأيت حسابك ما زال مفتوحاً، نسيت إغلاقه، مع أنّك حريص على ألّا تترك أثراً وراءك أتعقّبه فأكتشف خيانتك، لم يكن يحلو البحث حينها في حسابه، وإن كنت تخونني فإنني كنت أثق بك حينها، وبعفويّة لا إراديّة وجدت محادثات غزلٍ وحبّ بينك وبين فتاة لا أذكرها الآن، محادثات لا تخلو من العشق والهيام، وكأنّك شخصٌ لا أعرفه، ما أروع لسانك حين تحادث غيري، وما أقبح لسانك

حين تحادثني. لم أسمعك تحادثني بكلام كهذا من قبل، ولكني رأيته على لسانك لفتاة ليست من حقّك ولم تكن لك يوما ولن تكون.

بدأت رحلة البحث كالمحقق «كونان»، راجعت كتب أجاثا كريستي جميعها ولم أنس استحضار شارلك هولمز في جلسة التحقيق هذه، أشعلت راداراتي جميعها كي ألتقط ما كتب في تلك المحادثة البغيضة.

يا لخيبتي بك! كيف تخون مجدّداً؟ ما تبريرك الآن؟ أليس هذا الكلام أنا الأحقّ به منها؟ أليست زوجتك هي الأحقّ بكلام الغزل هذا؟ أم باتت حواء كشجرة عجوز بائسة لا يحقّ لها شيء سوى تربية طفلة صغيرة والاعتناء بك كطفل لها. بكيت كثيراً تلك الليلة وبكى قلبي أيضاً.

حين تقرأ رسالتي هذه ستدرك حجم الألم الذي سببته لي حينها، بت أنصهر كالذهب قهراً وألماً، تجرّأت على إيقاظك وقلبي يشتعل ناراً لا تنطفئ. أيقظتك لتخبرني بسبب هذه الخيانة... تخبرني لماذا؟

لم يكن يسمع بكائي في منتصف الليل أحد سوى صدى نحيبي، وسؤال واحد كُتب بتلك الدموع لماذا؟

لماذا تفعل بي هذا؟ استجمعت جسدك كلّه وفتحت عينيك لتظهر الصورة لك جليّة، زوجتك والهاتف بيدها تبكي بكاء ينفطر له القلب، يجب عليك معرفة ما حدث دون سؤالها ذاك السؤال الغبي ماذا حصل؟

أخبرتني بكذب يستحيل تصديقه، أصدقاء الفيس ليس إلاّ، كذبتك غبيّة، أصدقاءُ إذن وتغازلها هكذا، ماذا لو كنتما عاشقين؟ ماذا ستفعلان حينها؟

هدّدتك بالرحيل عنك، كنت جادّة ولا أمزح، هدّدتك بأنّ اليوم هو آخر يومٍ سيجمعنا، إلى هنا تمنيّتُ أن تنتهي حكايتنا؟ ولكنّ الحكايا تجرّ بعضها كألف ليلة وليلة، ليتني فعلتها وأنهيت الحكاية، ومع ذلك كنت ما أزال غارقة في حبّك، لعلك في يوم ستتوب، نزلت دمعتك حينها قذيفة صاروخية وانفجرت في قلبي انفجاراً هائلاً، بكيت على

غياب لم أعنه بسبب جُبني وحماقتي، إذن هل تشفع دموعي التي لقسوتك لم تعد تهمّك؟ أتبكي يا آدم على محاولة مني بدرت لفراقك؟ وأنت في كلّ يومٍ تفارقني وترحلُ لأخرى تغنيك عني، أتبكي بسبب خسارتي؟ وأنا مازلت في مكاني، فسارعت للاعتذار مني.

إذن لماذا دفعتني إلى الهاوية وكان بإمكانك إمساكي؟ تركت يدي تهوي إلى قاعٍ لا أنجو منه بسهولة، استنجدت بك، بالله عليك ارحم قلباً هام بك، ولم تبال إن كان القاع عميقاً.

آدم الذي بكى فراقي تلك الليلة التي غاب فيها القمر مع أنّها كانت سماء صافية، أيعقل أن يهجر هكذا بقلب بارد؟

حين لمحت دمعتك واعتذاراتك المتكررة وانكساراتك، أدركت حينها مدى عشقك لي، أدركت ندمك أن حبّي باقٍ في قلبك ولم يمت، ولكنّ الأيّام قتلته.

من هنا ماتت ثقتي بك وشيعّتها وحيدة أبكيها، دفنتها مع صفات رائعة ماتت فيك، جميعها تركتها في أرض الوطن قبل أن تعبر الحدود. ولكنكّ عبرت الحدود مجدّداً ولم تعثر عليها ومن أهمّها الوفاء الذي تفتقر إليه. قتلت الثقة وأنا دفنتها، وتأتي إليّ لتلومني على دفني إياها. تلوم شجاعتي وتخبرني بأنّي تغيّرت كثيراً، وأقول لك: عد آدم القديم وسترى حواء القديمة قد عادت.

بتّ إنسانة من فولاذ يا آدم، لا تخشاك، ولا تخشى غدرك، سأنزع قلبي من مكانه إن سامحتك يوماً.

وعدتني بشراء هاتفٍ جديد يخصّني وحدي، سعدتُ بذلك، ولم أنتبه لما كنت تخطط أن تفعله، كنت تحسبها جيّداً، فلا أقترب من هاتفك بتاتاً، وتخون كما يحلو لك، كلمة سرّ صغيرة تضعها على شاشة هاتفك وينتهي كل الخلاف الذي بيننا، تلهيني بهاتف صغير وتلاعب أنت بنات الهوى كما يحلو لك.

رضيت بالاتفاق الذي سرى بيننا، وسأصبر إلى أن تأتيني نادماً على ما فعلته بقلبي من جرائم لا يعاقب القانون عليها، لم أكن أعلم أنّ هذا اليوم سيطول جدّاً ولن يأتي.

انتهت هذه الحكاية وأصبحت ذكرى فقط، تذكرّتها لسبب واحد أن أعود لكرهك مجدّداً، وإن كان انفصالي عنك هو الحلّ الوحيد لأنساك فليكن.

أليس أفضل من خيباتك التي لم تنته.

M. A. M

٢/٧

الرسالة الثانية عشر

اشتاق لك حدّ الوجع وأكثر... فمتى سنتبادل الأدوار أنت تأتي وأنا لا أنتظرك، متى سنتبادل أدوار بعضنا؟ تعشقني حدّ الثمالة، تذوب سكراً بي، فأغيب عنك وأرحل إلى البعيد، إلى مكان لا يصلني فيه صداك، أشتاق لا لآدم الجديد، بل لآدم القديم الذي كان يهيم بحواء ويعشقها حدّ الجنون.

أنسيت كيف كنت أبتدع معك طرقاً جديدة لحياة تمنيّتها أن تكون أفضل مما كانت عليه، ابتكرت لك أساليب جديدة لأعبّر لك عن حزنٍ خلق بسببك، أنام متوسّدة هاتفي الصغير وتصدح منه أغانٍ لهاني شاكر فأنام والدموع ملء العيون، دون أن تلمحها، ولكنّك كنت تشعر بها دون أن تراها، أدير لك ظهري كي لا أحدث أي احتكاك معك، كنتُ قد مللتُ من عتابي لك الذي بات لا فائدة منه، عتابي لن يغيّر منك شيئاً، حاولتُ وفشلتُ كثيراً، قررت أن أوقف عتابي حين أدركت أنّك كجدار في غرفتي بارد بلا إحساس أو شعور.

أراك تحتضنني وتقبلني وتمسح عبراتي التي لم ترها، بحبّ جارف تحتضنني، عيناك ما يبدأ الاعتذار، بقلب طيّب كطفلٍ بريء لا يريد شيئاً سوى لحظة حبّ دافئة، يريدها له وحده، لا عتاب... لا أعذار، ننسى الماضي لنعيش الحاضر فقط.

صفحة بيضاء نفتحها ونمزّق تلك الصفحات، يا الله كم فتحتُ لك صفحات لا تنتهي بدفاترٍ لا تنتهي! يا الله كم مزقّت من صفحات قديمة، حرقتها وأتلفتها ورميّتها في قاع الماضي، فسحبتني نحوها بيديها القويتيّن كعاصفة جارفة حارقة مدمّرة لكل شيء يسير في طريقها. وحدك من كنت قويّاً في وجه أعتى العواصف ونظرت إلى مستقبل لا ماضي فيه ولا حاضر، مستقبلٍ تنشئه وحدك، تعيشه بمفردك، صفحات تفتحها أنت

وتكتب بداخلها قدرك، لا حواء تشاطرك فيه، فإن أرادت فتح صفحة جديدة، فلتفتح دفتراً وحدها وتكتب قدرها بعيداً عنك.

هل كان ذلك ذنبي لأنني ركضتُ وراء مشاعر ثائرة في قلبي؟ كان يجدر بي دفنها قبل أن تستيقظ وتكبر مع الأيّام لتنادي عليك بصوتها العاصف، كان من الأفضل وأدها قبل أن تصبح بطاقة حمراء تهددني بها.

قررتُ ألا أبكيك، هذا القرار اتخذته مئات المرّات وفي كل مرّة تخونني دمعة قاسية وتنهمر محدثة في قاع قلبي ضجيجاً لا يرحم، يجب ألا أبكيك، فكبريائي واقفٌ لي بالمرصاد يمنعني من ذرف الدموع على ظلِ رجل اختفى حين حلّ الظلام.

قرّرتُ الكتابة عنك فلعلّك تحيا في قلبي وتكبر كما ولدت فيها، أكتب أيّاماً لا تنساها الذاكرة، هربت مثلك ومثلك لن تعود.

* * *

وحدك من وهبني الحب ثمّ سلبه مني، وحدك من منحني الأمل بغدٍ أجمل نعيشه ثمّ سرقه مني، وتركني وحيدة أندب حبّاً ما عاد لي.

لن أعيد التحدّث معك بشأن تفاصيل كانت لي وأضحت لغيري فأنت تكره التكرار كما تكره العتاب.

لن أكتب أكثر بسبب حرارة قلمي المرتفعة، التي أبت الانخفاض ولو قليلاً، سأذكّرك بامرأة لم تنسها بعد، كانت لك جسداً وكانت لي صديقة.

دخلت حياتي بملء إرادتكما، أنت من أمرتها بذلك حين كانت عشيقتك في السرّ وكانت صديقتي في العلن، دخلت حياتي فجأة بدون استئذان، زارتني مرّات عدّة وحدّثني عن طلاقها ووحدتها كنت أرفّه عنها بالسماح لها بالمجيء إلى بيتي متى أرادت، كانت تضاهيني جمالاً، ولكن هذا ليس عدلاً أن تدخلها بيتي نهاراً وتخونني معها ليلاً، كيف سمحت لنفسها أن تلعب دورين متضادين، دور الصديقة الطيّبة التي تسارع لمساعدة صديقتها في ما تحتاجه، ودور الساقطة التي تخون صديقتها مع زوجها، عائلتك وجيراني

حذروني منها، لكنني سددتُ أذنيّ فهي طيّبة وتكره الرجال جميعهم، وحين تأتي أمنعك من دخول البيت لكرهها لكم، ولكنّها في المساء كانت تعشق الرجال جميعهم وأنت واحدٌ منهم.

في وضح النهار تأتي ونجلس الساعات معاً، نتحدّث بأمورٍ عديدة، وفتحتُ لها قلبي وأودعتها أسراراً عنك وعنّي ما كانت تعرفها.

ما ذنبي إن كنت قد أودعتني في غربةٍ، لا عائلة ولا أصدقاء يحتوونني لأبثّهم شكواي؟ ما ذنبي إن كنت صامتاً على الدوام؟ حين أحاول التحدّث معك تتهمني بالثرثرة، أبعدتني عن حضن الوطن ورميتني في غربة أنت أوّل من ابتعد عنّي فيها، بدل أن نكون متكاتفين في غربتنا كنت جلّادي وقاتل أفراحي، العائلة؛ والانتماء؛ والأهل؛ والوطن؛ والحبّ؛ والأمان؛ أشياء بنظرك ثانويّة ولكنّها تعني كل الحياة بنظري. كلّ هذه الأشياء دفعتني لأتحدّث بحريّة لأيّ فتاة تعبر حياتي، أحدّثها عنك وعن غربتي؛ عن وحدتي، لم أكن على علم أنّي أحدّثها عن حبيبي الذي بدوره حبيبها أيضاً.

بالله عليك كم مرّة ضاجعتها سرّاً في ذاك المكان، الذي تسمع منه هدير أمواج البحر الغاضب منكما، حين أقترب من ذاك المكان تعلو نبضات قلبي بسرعة، هنا شهدت السماء خيانتك التي لا تغتفر، وهل البحر كان أيضاً شاهداً عليها في حين لم أكن شاهدة عليكما؟ كنت تعود إليّ وآثار خيانتك بادية على ملامحك.

كم مرّة شهد هاتفكما محادثتكما التي لا تنتهي وكلام العسل يقطر منها؟

كم مرّة خفق قلبك لها وردد لسانك (أحبّك) مرّات ليست بالقليلة؟

كم مرّة ذهبتما إلى ذاك الجبل الذي شهد حبنا في هذه المرّة شهد خيانتكما، وكأنني حين ذهبت إلى هناك بمفردي كادت الصخور تحدّثني عنكما وعن جلساتكما التي لا تنته عليها.

كنت أعشق الذهاب إلى هناك وأطلب منك ذلك، لنعيد صفاء الماضي ولنخلق حبّاً جديداً، فتطلب منّي الاتصال بها كي تأتي معنا، كي نسرّ ثلاثتنا، أنت مخطئ في ذلك فأنا لن أسرّ معكما.

أرأيت الحزن يطلّ من عيني حين تذكرها بوقاحة أن تأتي معنا؟ أثور عليك وهذا حقّي، أعود لأطلب منك ثانية أن نخرج بمفردنا مع طفلتنا الصغيرة، فتهرب من البيت خارجاً، ربّما إليها، وربّما لأخرى! فما عدت أفهمك.

أدفن حزني في قلبي كما الأيّام تدفن بعضها، ألم تر شعاع الحزن يلوح لك في عيني؟ كنتُ حاملاً حينها بطفلتك الثانية، وكان جسدي في غاية التعب من جرّاء حملي الثقيل، من بداية شهري الأول إلى أن أنجبتها وبعدها بستّة أشهر وأنا مرهقة ومتعبة، كنت أشكو تعبي إليك فتهرب من شكواي لأخريات، فقدت حينها صديقي الذي تواعدنا على الصداقة حين نفقد الحب، لم تكن معي في تعبي وعذابي، كنت لاهياً عني في حياة صنعتها لنفسك، أنجبت طفلتي بعيداً عنك إذ أبيت أن يكون لك ابنة ثانية، كي لا تعكّر صفو حياتك، إن كنت قد قررت الفرار دون عودة، وإن كنت تريد وضع حدٍّ لحياتنا ألا وهو الفراق، فلا يجدر بي أن أنجب لك طفلة أخرى.

بتّ تفتعل المشاكل دون سبب واضح، وكنت أهدّئ من روعك وأسألك عن سبب غضبك، كنت أحاول فهم غضبك واستيعابه، أعطي لذاتي مسوغات غبية لأبقى بصحبتك، ولكن حين وصل الأمر إلى حدّ لا يطاق، ثرت في وجهك لأعرف ماذا تريد بالضبط؟

أعود لسؤالي السخيف مجدّداً، لماذا فعلت ما فعلت؟ وأنا لا ذنب لي سوى عشقك، لا ذنب لي بجرائمك الكثيرة وهفواتك وزلاتك وأنانيّتك، لا ذنب لي بكلّ هذا، ومع ذلك تحمّلتُ العقاب وجنيتَ المكافئة. خرجتَ المنتصر من المعركة وشهد لك الجميع بالبطولة، وخرجتُ أبحث عن مقعد فارغ أستريح عليه من عبء حياة معك أثقلت كاهلي.

رجوتك مئات المرّات أن تعتق سراحي، جملة من كلمتين، مؤلفة من سبّعة حروف، كافية لنفترق؛ ويذهب كلٍّ منّا في اتجاه، أنت إلى خليلاتك، أنا إلى حيث... لا أدري إلى أين كنت سأذهب؟ كل ما يهمّني هو الهروب منك ومن واقعك السخيف.

ابتدأ كرهي لك... كنت تهيّء لفراق يدوم أشهراً، في حين كنت أقرّر لفراق يدوم سنيناً وسنيناً لا يكون فيها لقاء.

مشاكلنا كثرت وتزايدت في الآونة الأخيرة، أتفه الأشياء تجعل منّا خصمين، صمتّ كثيراً وكثيراً، وانفجرت بعدها كبركان خمد سنوات ولم يحتمل أكثر فثار، خذ ما شئت وارحل عنّي، بتّ أكرهك وأكره أفعالك، لكنّك في صمتك هذا مازلت مصرّاً على إغاظتي.

طوال عمري كنت أخشى عليك من نسمة هواء تلفح خدّك، أصبحت الآن المذنبة في كل شيء، في اهتمامي وحبّي ووفائي، أنت القيصر وحولك الجواري يتمنيّن منك نظرة فابتسامة فحباً يدوم ويدوم ولا ينفذ، رفضت أن أكون جارية لك، كبريائي رفض ذلك، رفضت أن أجاري لعبتك القذرة.

ألعابك القذرة ألعبها بعيداً عن منزلي، لا أريد لمثلك أن يدنّس بيتاً كهذا لم يعرف الكره والنفاق، خذ عاهراتك وارحل عن طريقي.

ارحل إلى حيث تشاء فالدروب كثيرة، تستطيع أن تسلك منها ما يحلو لك، ولكن إيّاك أن تسلك دربي، سأزرع فيه أشواكاً كي لا تمرّ منه، اترك لي حريّتي وارحل، اترك لي سنين من الذكريات العالقة في الذاكرة التي تأبى النسيان، لن أسامحك على ما فعلت بقلبي، فاتركني أرحل عنك بهدوء.

لم تفهم بعد أنّي أكرهك، كنت تعتقد حين أصرخ فيها بأن لها معنى آخر، كنتَ كجدار أصمّ حين أصرخ في وجهك، خشبة مسرح مهجور هوت من السقف دون إحداث ضجّة.

كنت الوحيدة الواجب عليّ الاستماع إلى صمتك، لأستوعب ما يجول في خاطرك من غدر وخيانة، ولكن عبثاً أحاول فأفشل لأنّك غامضاً كما البحر الهادئ.

أجلس أمامك والعبرات كشلال تنهمر من مقلتين حمراويتين وأسألك لماذا؟

لم تعد تأبه بتلك الدموع، ربّما لأنّها أصبحت غزيرة أكثر ممّا كانت عليه، ولكن أليست بسببك قد انهمرت؟ أم لم يكن لك دخلٌ في ذلك؟

لم يعد يروق لك مسح الدموع من عينيّ، هل باتت يداك تمسح دموعاً أخرى؟ فلم تجد فرقاً بين هذه الدموع وتلك.

أسألك ماذا تريد في النهاية؟ وعيناك على شاشة التلفاز مثبتة تشاهد مباراة لكرة القدم بين مانشستر سيتي ومانشستر يونايتد، فمن أنا لأقاطعك حينها؟ ليتني كنت كرة قدم، هل حينها ستهتمّ بي مثلها وتعشقني كعشقك لها؟ وأعيد السؤال ذاته بين الشوطين، فتقول لي: (هذا أنا... ولن أتغيّر) جملتك بسيطة وواضحة، لن تعود لما كنت عليه، بل ستتقدّم بمستوى الدناءة تلك وستنجح، أعدك.

حسنٌ يا آدم وأنا أرفض ذلك، اخرج من حياتي ولا تعد إليها، وإن رأيتك بصحبة غيري، يدك تعانق يدها، وتتضاحكان وسط الشارع فلن أعيرك اهتماماً ولن أقترب منك، سأمضي في طريقي دون أن تراني.

عفواً... كنت أكذب واسترسلت بالكذب دون انتباهي لذلك.

حينها سأرفضك رفضاً قاطعاً، ولكن إن فعلتها وغادرت حينها سأذوب حزناً على غيابك... لا لن أذوب... ها قد غبت عني فهل ذبت؟ إنها كذبة، حواء لا تغيب إن غبت أنت بل حين تراها ستجدها كأنّ الفراق مرّ عليها مرور الكرام دون أن يفعل بها شيئاً.

إذا عدت إليّ، أستعود آدم القديم الذي خلع رداء الوفاء قبل أن يعبر الحدود؟ هذا المستحيل بعينه يا آدم، وأنا مثلك أعشق التملّك، لا أحب أن تشاركني أخرى في آدم خاصتي.

أتراك مازلت حين تناديني تضع ياء الملكيّة في نهاية اسمي، أم نسيت اسمي؟

قررتَ تركها لا حبّاً بي ولا وفاءً لي، لأنّك وببساطة رأيت غيرها أجمل منها. فحاولت الانتحار ولكنها لم تمت... فاتصلت بك لتخبرك بحاجتها لك ومحاولتها الانتحار بسببك.

وما علاقتي بها لتوقظني عندما كنت نائمة وطفلتي التي لم تتجاوز الأسبوع بجواري، توقظني في منتصف الليل لتخبرني بذلك، ماذا عساي أفعل لها.

شكوكي أصبحت حقيقة، سألتك بالله ماذا بينكما لتبعث لك دون غيرك وعائلتها كبيرة جدّاً؟ لم تجب... بقيت متّكئاً على جنبك الأيمن واضعاً وسادتين فوق بعضهما وعليهما يدك اليمنى تعبث بهاتفك، تحادثها وتحادثك، وأنا في سريري أموت غيظاً، بعثتُ لها برسائل لأفهم ما يجري، أفهمتها أنه كان يجب عليها الاتصال بعائلتها، مالنا ولها»، اعتذرت منّي وأخبرتني أنّها كأخت لك.

أختٌ لك يا آدم؟ أخبرني كيف أصبحت أختك؟ هل كان يجب عليّ أن أصفّق لكما بعد انتهاء هذه المسرحيّة الغبيّة؟

هل هذا ذنبي لأنني وما زلت للمرّة الألف بعد الخمسين ألفاً أحاول الحفاظ على عائلتي من الضياع؟ من دمار سيطوله بفضلك، أنت تهدم وأنا أبني، انتبه قلت لك: الحفاظ على عائلتي لم أقل لأنني ما زلت على عهد حبّك، فالعهد نقض وأنت من نقضه.

لم يعجبك جوابي أبداً، فثرتُ في وجهي لأنني حذفتها من هاتفي. بكلّ وقاحة لم حذفتها؟ أكان يجب عليّ أن أضعها على رأسي فهي عشيقة زوجي؟ أليس كذلك يا آدم! تبّاً لوقاحتك.

بدأت خياناتك تظهر علناً، دون مراعاة لمشاعر أنثى مازلت عندها الزوج الواجب عليها الاهتمام به ورعايته في غربته.

أيحقّ لي الآن ذرف العبرات على ذكرى كهذه أدمت قلبي سابقاً دون أن تبكي عينيّ، وأدمته لاحقاً فأبكت عيني؟

آدم يا من عشقتك بكلّ كياني... ها أنا أمقتك بكلّ جوارحي.

M. A. M

٤/٧

الرسالة الثالثة عشر

أوليس الأجدر بي أن أنساك ولو دقيقة كأنّك شيء لم يكن. قصّة حياتنا التي كنت يوماً بطلاً متألّقاً فيها ها هي ستنتهي ويموت الحبّ على أعتاب الغدر والخيانة.

بحزن بالغ الأسى أشيّع جثمان حبّنا إلى مثواه الأخير، في مقبرة النسيان سأدفنه كي لا يعود إلى الذاكرة من جديد.

نقطة في آخر كتاب حياتنا سأضعها وأغلق الكتاب نهائياً، ولن أدعك تفتحه من جديد وترى ما كتُب في نهايته، سأعلن «أنا» انتهاء فصلٍ كاملٍ من حبّ دون حبيب، من وفاء شهد غدراً وخيانة ومازال شاهداً على إخلاصه. فيما أنت عابث لاهٍ بحياة تختلف كلّ الاختلاف عن حياة أطمح إليها، أحاول الوصول إلى قمّتها وأتربّع على عرشها، فيما تبقى أنت في الحضيض مازلت تحاول استيعاب ما جرى في غمضة عين.

ستذكرني ولن تنساني ما حييت، أعدك بذلك، وسأكون كالذنب الذي لا يغتفر في ذهنك والنادم عليه طوال حياتك، ولن يغتفر.

في منتصف الطريق افترقنا، تركتك لاهياً، فيما أخذت ابنتيَّ وأكملتُه لوحدي، أتذكّر بأنّه كان شاقّاً علي، ولكن كان هناك بصيص أملٍ في نهايته يدعوني لأكمل السير، شيء ما في النهاية ينتظرني ويجعلني أسجد لخالقي باكية فرحاً بنورٍ سيشعّ في قلبي.

لم يكن في نهايته سوى شجرة ذكرياتٍ ضخمة تحجب النور الساطع، تطلّ في سرابٍ عميق وظلامٍ كثيفٍ يلفّ حولها، وحدي من شاهدها، أتراك إذا شاهدتها معي ستعود وتلبس قناع الحبّ الذي تركته قبل أن تعبر الحدود؟ ولكنّك كنت في عالمٍ آخر لا مكان للحبّ فيه، لنعد إلى شجرتنا ـ شجرة ذكرياتنا ـ رأيت كلّ صورة فيها لذكرى من حبّ

جمعنا، لأملٍ في غدٍ كان سيغدو أفضل، أردت البكاء من قلبي وجسدي مستند إلى جذع الشجرة، أردت قطف تلك الذكريات فأضمّها إلى قلبي وأتوسّدها خائفة عليها من الهروب مثل صاحبها، أردت حمايتها من أنانيّتك ولملمة بقايا حبّ تحوّل إلى بغض ولن يعود مما كان، أردت الصراخ لعلّي أخرج بركاناً من ألم يختبئ في حنايا ضلوعي؛ الذي يغلي في داخلي حمماً لا تهدأ، ولكنّي كبتُّ حزني حين رأيتُ الأمل يطلّ من خلف شجرة الذكريات، كان شعاع الأمل يهبط في قلبي «أنا»، ليشعّ جسدي نوراً وتنفرج على فمي ابتسامة فرح أكثر منها ابتسامة أمل. مسحت دمعة رسمت في مقلتي، قتلتها قبل أن تحيا فتقتلني. وقطفت الوردة الصفراء التي طالما تمنيّتك أن تهديني إياها، كانت تنمو بمحاذاة شجرة الذكريات، أهديتها لذاتي وزينّت بها شعري، فأنا في أمسّ الحاجة إليها اليوم، أعطتني الأمل بحبّ الحياة، وتابعت بقيّة الدرب مبتسمة دون أن ألمح اختفاء تلك الشجرة كسراب انتهى. أغلقت أذني كي لا أسمع صراخ قلبك لفراقي الذي كنت تعتبره هيّناً وكنت أعتبره ضياعاً.

لم تفكر يوماً بإهدائي وردة صفراء وعلى الرغم من عشقي للورد الأصفر كنت تسارع لإهدائي الورد الأحمر ومع ذلك لم اعترض لعدم وجود رائحة للورد الطبيعي واستبدلوها برائحة عطرٍ نفاذة، أشكرك من كلّ قلبي على تلك الورود، تراني فرحةً سعيدة وأنا أقبّل الوردة وأداعبها وأتمنّاها في سرّي، لو كانت صفراء كانت ستبدو أكثر إشراقاً وأملاً وأخفي في نفسي عكس ما كنت أبديه.

توقفت في وسط الدرب عند صخرة صمّاء قاسية شبهتك بها بقسوتك ولا مبالاتك، تذكرّت بأن دربي سيطول أكثر إن مشيتُ في بطء وعند كلّ صخرة أقف لأتذكّر قسوتك.

كنتُ أقف صامتة وأطرق ثلاث طرقات على كلّ صخرة وأبدأ بالحديث عنك وعن آلامٍ تجرّعتها بسببك، فهي تماماً مثلك لا تجاريني الحديث ولكنّها تستمع إلي. ألم أقل لك منذ البداية إنك تشبه هذه الصخور الصمّاء في صمتها وقسوتها؟

لم أنس الحفر الكثيرة التي مررت بجانبها، كانت موحلة ومظلمة وكأنهّا تريد ابتلاعي، كلّ ما في الدرب من صعوبات كانت تجبرني أن أعود إليك لاهثة وأرتمي بين ذراعيك فلعلّك تحميني من لصوص الدرب المخيفين، من صخور قاسية وحفرٍ في الأرض عميقة.

لكنّني كنتُ قطعتُ شوطاً لا بأس به من هذه الدرب اللعينة، والعودة إليك باتت شبه مستحيلة إن لم تكن مستحيلة.

نسيت إخبارك أمراً مهمّاً عن هذا الدرب، فالورود الصفراء والحمراء والأرجوانيّة تنبت على حافتيه أكثر من صخوره وحفره، وزقزقة العصافير لم تفارقني وكأنّها تريد حمايتي من شجرة الذكريات التي أراها ترافقني على طول الدرب.

جلستُ على قارعة الذكريات وفكري مشغول بك، لم يتسنَّ لي الوقت لأنساك، فأراك تلعب في ذاكرتي في كلّ حين. ماذا فعلت بك الأيّام في غيابنا؟ أتراها تتراءى لك شجرة الذكريات مثلي! أم إنّك تحيا في وادٍ غير هذا الوادي الذي أحيا فيه، ماذا ستفعل لو علمت بنهاية دربي؟ وكيف بات لا يفضي إلى دربك أبداً؟ فدربي ذو خطٍ مستقيم ودربك ذو اعوجاج لا يستقيم ولا ينتهي.

أتظنّ أنّي غارقة في وحلٍ من الأحزان سببه فراقك لي، أتتخيّل بأنّ وسادتي التي أنام عليها دوماً مشبعة بعبرات سببها ذكرياتك وظل شجرتك البائسة! هل تفكّر بهذا كثيراً؟ وهل هذا الأمر يؤرقك؟ لا يا آدم... أنت مخطئ إن كان ذهنك قد بدأ يرسم لك أوهاماً صدّقها عقلك، ومع ذلك لم تحرّك ساكناً.

أتذكر ذاك الدرب الذي مشيناه معاً يوم كنّا ما نزال عاشقين صغيرين، مشيتُ فيه قبل يومٍ دونك، تذكرّتك فلم أنهر. فرحٌ رائع غمرني، نشوة الانتصار على خيباتك لاحت لي كأنّك عابر سبيل في محطّة من محطّات حياتي.

ها أنا بدأت حياتي وأوّل مرّة متحررة منك كطفلٍ رضيع يخطو أولى خطواته، يقف ويتعثّر، ثم يقف ويقع أرضاً، يسير خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف. وخطوتين إلى الأمام وبعد الصبر كلّه يسير وحيداً بعد أن يفلت يد أمّه ليركض حرّاً، ليس خائفاً من وعورة الطريق. أوّل مرّة أسير دون النظر مراراً إلى مواعيدك الغراميّة الفاشلة.

سأعود لحياة «أنت» لست فيها، سعيدة بعض الشيء وخائفة بعض الشيء، لا أنكر ذلك، ربّما خوفي جاء من فشلٍ كاد يفتك بي، وسعادتي نبعت من حياة ستكون دون غدرٍ وخيانة. سأعيش لأجل نفسي التي أهملتها في الآونة الأخيرة بفضلك، سأعود لأهتمّ بها فهي لن تغدر بي مثلك، ولن تغادرني في وسط الدرب، ستأخذ بيدي لأعيش الحياة وأولد من جديد.

سأبتسم لك إن مررت بجواري بصحبة غيري، وسأغمز لك بطرف عيني اليمنى، سأشفق على تلك اليد التي تمسكها فالله وحده من أسعدني وأشقاها. سترى ابتسامتي وكيف أنّك لم تستطع إزالتها ولن تستطيع.

وكما أخبرتك من قبل أنّك ستذكرني ولن تنساني، ها أنا أعود لأخبرك وأتنبّأ بمستقبل سيجمعنا دون موعدٍ، ستلتقيني... أعدك بذلك... في درب مظلم وعر مجهول الملامح ستراني، ستنظر إليّ نظرة إعجابٍ وحبّ قد فاتك، ستراني كبطلة لفلم من أفلام هوليود، أشعّ نوراً وحسناً. سترى أنّ الزمن قد غيّر الكثير فيّ، وغدوت امرأة لا كتلك التي كانت بين يديك وأضعتها، ستراه كيف غيّرني للأفضل... للأجمل... للأكمل. تنظر إلى ابتسامة عشقها الكثيرون غيرك قبل أن تعشقها أنت، ستكتشف أنّها غدت أنقى وأصفى وتقف في منتصف الطريق وتتساءل من غيّرها؟ هل كنت أنا السبب؟ أم إنّها اقتنعت أخيراً أن الحياة ليست آدم فقط. سأرى حزنك يشعّ ويتلألأ كوميض من كآبة لا تفارقك، أنظر إليك بدوري وكأنّك ممثّل ثانوي فاشل في فيلم هابط مملّ، سأراك شخصاً أسطوريا قادماً من الماضي البعيد، وأنا أقسمت على نسيان الماضي، ككتابٍ قديمٍ في خزانة مهجورة، كتاب قرأته حتّى النهاية فأدمنته بعد أن كرهت نهايته المملّة، فرميته في أوّل

سلّة مهملات صادفتها، فحواء التي خلقت ضعيفة من ضلعك لن تنحني لك مهما بلغت قوّتك.

ها قد مضى على رحيلك سنة ونصف السنة، جسداً معي دون قلب كنت... وستّة أشهر غاب فيها جسدك كما غاب فيها قلبك.

لم يتغيّر شيء مذ رحيلك الأبدي عني، السماء مازالت تمطر في مواعيدها وفي لياليها الأكثر جنوناً يشتدّ المطر كعيني حين تفتقدانك، وفي ذات الموعد من كلّ عام تضطرب الأرض وتغضب لحال حوّاء التي أهانها آدم، فتعصف الأرض غاضبة ولكن سرعان ما تهدأ لتكمّل الحياة دورتها.

والشمس تشرق وتغرب في موعدها، فمن أنت لتغيّر الأقدار وتغيّر مسرى الكواكب حين تغيب؟ هذه هي الحياة في غيابك مازالت تمضي في كونها كما كتب الله لها، أتراني سأجلس منكمشة على ذاتي أوقف نموّي وأبقى هيكلاً عظمياً لا حياة فيه، فأنا لست «**استراغون**» أو «**فلاديمير**» لأنتظرك ولكنّك «**كغودو**» لن تأتي.

عاد الشتاء هذا العام أكثر دفئاً من شتاء السنة الماضية، ربّما لأنّ ذاك الشتاء غادرني ومازلت أرثيك وأبكيك، فجاء هذا الشتاء وحنيني لك أقلّ بمئة مرّة من ذاك الحنين، وتلاه الربيع أكثر سروراً من ذي قبل.

لم أجلس وحيدة في المنزل فلم أعتد بعد على الوحدة، ربّما خوفي من صورتك أن تتراءى لي وقد أحرقتها في ذهني آلاف المرّات وفي كلّ مرة تنفض الرماد عنها لتظهر مجدّداً من العدم.

قررت مجاراتك في غيابك الدائم، فمثلي لا تستحق سوى الحياة الأنيقة، فلن أنتظرك بينما الحياة على الطرف الآخر تنتظرني.

إلى الربيع ذهبت وحيدة وفي قلبي ثورات لم تخمد بعد، بعضها يطالب بك، وبعضها يطلب القصاص منك، وأنا واقعة بين الثورتين، لا أعرف السبيل للخلاص من هذه الحرب التي أوقعت ذاتي بها، جلست على الأعشاب الخضراء البريّة تحت شمس

الربيع الدافئة، وسرقت منه بعضاً من الزهور ذات الألوان الزاهية، كنت أعشقها أنا وأختي وخاصة أنّها مليئة بالورد الأصفر، الذي كنا لا نعرف تسميته فنناديه بورد الربيع، أهديت الورود جميعها التي قطفتها لذاتي فلها الحقّ بها أكثر منك، وعدتُ إلى البيت أنشى جديدة، خلعت هناك رداء السذاجة والطيبة، وارتديت رداء القوّة والشجاعة بعد أن زيّنت شعري بكافة الورود، وكلّما لاحت لي صورتك وارتسمت على الجدار الماثل أمامي في غرفتي اللعينة أذهب إلى الربيع وأقطف ما تبقّى من ورد وأهديهم لنفسي.

ومع كل هذا الكبرياء والتحدّي كنت بيني وبين نفسي أتمنّاك بجانبي تضمّني لقلبك فأستمع إلى نبضاته العنيفة، ومع كلّ نبضة تخبرني بمدى حبّك لي، وكأنّ قلبي بات يخون عقلي ويواعدك خفية ويذكرك سرّاً، أتمناك لو كنت ما تزال خائفاً علي، تقبّلني بنظراتك، ويداك الدافئتان تلامسان يديّ الباردتين وبعدها تخترقانهما إلى صميم الفؤاد، لو أنك لم ترحل، لو تأخّر رحيلك ثواني فقط لا غير لملأت قلبي حينها من حبٍّ سيذوب قبل أن أثمل منه.

لو وقفت على الباب دقائق أخرى وبدلاً من رحيلك هكذا، دون أن تنظر إلى من خلّفت خلفك باكية، لو تعود أدراجك وتضمّني إلى قلبك لعلّك تسمع نبض قلبي وهو يناديك، لعلّنا نبتدئ حكاية جديدة، لكنّك توّاق للهرب، شغوف بالبحث عن حلمٍ جديد يعيد إليك رجولتك، وأنا ماذا عن أنوثتي؟ من يعيدها؟

هل فكرّت بحجم الخسائر التي ألحقتها بقلب ذاب فيك؟ فرحلت عنه غير مبالٍ.

والآن وبمنتهى اللامبالاة أرى رقمك يزيّن شاشة هاتفي لتخبرني بعودة باتت مستحيلة. أهو لزام عليّ استقبالك بباقة من الورود الطبيعية ذات الألوان الأرجوانيّة، وأنا أخفي خلفها ابتسامة صفراء، وآلاماً وعذاباً اتخذت مستقرّاً ومقاماً في صدري.

أهو لزام عليّ الضحك معك والرقص معك على جراحي النازفة التي تدرك أنّك أنت السبب فيها؟

ستعود يا سيّدي ولكنّك لن تعود إلى الحضن ذاته، فالحضن الذي لفظك لا يمكنه استعادتك مجدّداً، لن أدعك تعبث بحياتي مجدّداً، فقلبي أغلقته للصيانة، فيه حفريّات لا تنتهي، وخنادق عميقة، والصيانة باتت تعمل فيه ليل نهار، وحين تنتهي الصيانة منه سأغلقه نهائياً عنك وعن غيرك. لن أدعك وأمثالك تعبثون مجدّداً بقلبي.

كان لازماً عليّ أن أغلقه، فأنت في كلّ ثانية تخون قلبي دون أن تراعي فيه حرمة الله.

* * *

لم تنس أيامنا في غربتنا تلك التي قضيناها سوياً بحلوها ومرّها، كنت أعدّك أهلي وسندي وعائلتي، لكنّك لم تعتبرني يوماً أهلاً لك، لم تعتبرني يوماً سوى عابرة سبيل في حياتك تغادرها وترحل عنها بمجرّد المرور من أمام فتاة تفوقني جمالاً، ووحدي من تبقى تصارع ذكريات صنعتها بنفسها لنفسها.

بنات جارتنا الثلاث القصيرات والنحيلات، أتتذكرهنّ؟ لا يمكنك نسيانهن... كنّ يأتيّن إليّ يوميّاً ويسهرّن معي فيؤنسن وحدتي، في البداية اعتقدت ذلك، يا لسذاجتي! ويا لغبائي! كم مرّة يجب عليك أن تخونني لأقتنع بخيانتك ولأقتنع أنّك مهما أقسمت الوفاء فأنت إنسانٌ خائن خائن؟ ولن تصلحك الأيّام. فالأيّام عجزت عن إصلاح ما أفسده الدهر.

يتقاسمن معك النرجيلة، وأنا الواجب عليّ إعداد الشاي والقهوة في المطبخ، لأتركك معهن فتتبادل كلام الغزل مع أصغرهن، كانت شقراء قصيرة وصغيرة، لها شعرٌ طويل يصل إلى خاصرتها تقريباً ووجه بيضوي أبيض.

كانت تحب المجيء وحدها لتشبع غريزتها الأنثويّة، آتي إليكما بإبريق الشاي، وقلبي يتلوّى ناراً وغيرة منها، على حبّ كادت مراهقة تفتك به وتأخذه، اعتقدت أنّي سأبقى مدافعة عن هذا الحب إلى النهاية. ولكنّ حبّك كان متاحاً للجميع عداي.

أجلس صامتة بجواركما أحاول استنباط الأمر وفهم ما يدور في خلدكما، عبثاً أحاول استنباط أيّ شيء وكعادتي أفشل.

ترحل هي إلى بيتها الكائن أمام بيتنا لتتركني معك فأطاردك بوابلٍ من الأسئلة، وأنت لا تفعل شيئاً كعادتك سوى صمتٍ قاتل يكاد يبتلعني غيظاً وحقداً.

تجلس في الشرفة وحيداً، ويجلسن مقابلك على شرفتهنّ وتبدأ نظرات العيون التي لم أكن أفهمها بعد.

آتي أنا فأجلس بجوارك؛ سأصمت لن أتكلّم فأضايقك فأنا لا أريد شيئاً سوى الجلوس بجوارك. لم تنزعج مني، ولكن وجودي بجانبك هو الإزعاج بحد ذاته، أريد أن أشبع منك وكأنّي على علم بما سيحدث، وكأنّي علمت أنه سيأتي يوم فتغادرني دون كلمة وداع، أما قلت لك من قبل بأنّ لديّ حاسة سادسة تخبرني بما سيحصل فكنت تهزأ بي، تحاول إبعادي عن ساحتك بشتّى الطرق وكأنّي أعرقل مشروع حبّ يمرّ أمامك، وتحاول الإمساك بطرف الخيط قبل أن يهرب منك بعيداً فلا تستطيع اللحاق به.

مللتُ من كلّ شيء، فأبعدتهن عن سكّة قطاري بعد أن تشاجرت معهن كيّ لا يقفن في طريق سعادتنا، فأنت زوجي ومن حقّي اقتلاع عين أيّ أنثى تنظر إليك، فأنا لا أمثّل سوى البراءة والطيبة ولكنّهم فهموا من ذلك أنّني غبيّة ولا أفهم شيئاً من الحياة.

أوليس الأفضل من شجرة الذكريات تلك هذه الخيانات على الأقلّ، هذه الخيانات ستنسيني من كان يوماً حبيباً، فقط أتذكّر لأتناسى أيّاماً كنت الأفضل فيها في كلّ شيء، كنت تستيقظ في منتصف الليل لتوقظني لأنك جائع ولا تستطيع النوم. فأستيقظ وعيني مغمضة والثانية نصف مفتوحة لأضع لك عشاءً لذيذاً، دون أن يصدر مني أي تذمّر، فهذا واجبي وواجبي أيضاً إسعادك لأنّك قبل أن تكون زوجي كنت حبيبي.

أتذكر هذه الخيانات لأنساك وأنسى أيّام مرضك الكثيرة عندما كنت توقظني في الليل وحرارة جسدك تجاوزت التاسعة والثلاثين، لأسهر الليل بأكمله أحاول جاهدة العمل على خفض حرارتك فأنجح في ذلك، وفي الصباح أرتدي الثياب على عجل وأبحث في الصيّدليّات عن دواء مناسب، أحضره على عجل متمنّية لك شفاءً عاجلاً.

وعند مرضي تفعل الشيء عينه، ترتبك لأقلّ صداع نصفي قد يأتيني، وتدرك مسبقاً أنّ متلازمة هذا الصداع لا شفاء منها، ومع ذلك تهرب من الغرفة كي لا تراني وأنا أنهار من فرط التعب والألم لتعود محمّلاً بأقراص الدواء فتسقيني إياها ويدك الأخرى تحمل كأساً من الماء. تجلس بجواري رافضاً الرحيل إلى أن تراني أتماثل للشفاء فترى ابتسامتي التي كنت تعشقها، فتقبّلني باسماً قبل أن ترحل إلى أصدقائك.

كنت تبكي في حضني كطفلٍ فقد أمّه وأودعوه داراً للأيتام، كنت تدعني أمسّد شعرك وأنا صامتة، أنتظر منك إخراج بركان الألم الذي يثور في صدرك، أريد منك قول الحقيقة مرّة واحدة ولكن مبرراتك الكاذبة دائماً تكون جاهزة على طرف لسانك، لم أكن أدرك أن بكاءك المتواصل هو لفقدك أنثى كانت هي حياتك كلّها، ومع ذلك حين تهجرك أيّ أنثى تهرب إلى حضني فهو ملجؤك من عبث الحياة.

ولكن حين أبكي في حضنك كطفلة فقدت حذائها وتعبت قدماها جرّاء السير الطويل وهي حافية تقوم باحتضاني دون أن تعرف لماذا؟ وكنت شخصياً لا أعرف لماذا؟

ربّما هو خوفي من فقدانك للأبد حيث كان هذا الهاجس هو المسيطر على ذاتي، خوفي من كلّ خيانة تخونني فيها أن ترحل ولا تعود فأفقدك للأبد.

كنتُ أدرك مجيء هذا اليوم لا محالة، اليوم الذي نفترق فيه للأبد ويسير كلٍّ منّا في اتجاه معاكس للآخر ولكنّي كنت جاهلة تاريخ هذا اليوم. ربّما بعد سنة أو سنتين أو أكثر من ذلك بكثير.

أشعر بالأمان أحياناً حين تقول لي وابتسامتك تزيّن شفاهك (لا يفرّقنا سوى الموت) أين الموت الآن؟ لقد حصد أرواح الآلاف في هذه الحرب القذرة وأبقاك أنت دون سواك، الموت لم يفرّقنا، حتّى الموت خجل من تفريقنا وأنت لم تخجل من ذلك.

من استطاع بوقاحة تفريقنا غدرك وخيانتك الدائمة لقلبٍ حافظ عليك وأبيت أن تحتفظ به.

والآن أخبرك وقد وضعت كرامتي جانباً أنّي اشتاق لك. ولكني أشتاق لآدم القديم العاشق لحواء، لا آدم الذي خلع رداءه قبل أن يعبر الحدود.

ولكن طريقك مستحيل ومليء بأشواك لا حصر لها.

M. A. M

٧/٧

الرسالة الرابعة عشر

وحيدة كوردة حمراء متلألئة تنزف قطرات من الندى المشع جرّاء زخّات من المطر الصيفي، في فجر يوليو الصيفي الحار. قطفوا إخوتها حين كن ما زلن براعم صغيرة، لا ذنب لهنّ سوى إزهارهن قبلها وقبل بلوغ أوانهنّ، لبيّن إرادة الطبيعة وتفتّحن ورود حمراء مشرقات، أشرقت الشمس لتشعّ وتتفتّح كإخوتها فتغدو كلوحة رُسمت بريشة فنان مبدع، أنار القمر لياليها فطأطأت رأسها خجلة، وداعبها النسيم العليل فتراقصت يمنى ويسرى على إيقاع حفيف الأشجار... رقصت الفراشات حولها وتغزّلت بجمالها الفتّان، جلست بضع نحلات لتكسب رحيقاً شهيّاً منها، غنّت لها العصافير فتورّدت مبتهجة.

أرأيت الوردة وقد تابعت حياتها فتورّدت وأزهرت حتى بعد رحيل أخواتها، وهنّ أخواتها ماء حياتها. أزهرت مبتهجة للحياة، فالحياة لا تقف على إنسان مثلك، سأبدأ حياتي وحدي بقرار اتخذته أنت على هامش الحياة.

ربّما لأننا تعوّدنا على وخزاتٍ من الألم، وربّما قلبنا هو الذي تحجّر وتحجّرت معه الدمعة، ربّما أدركنا في نهاية المطاف بأنّ دموعنا ما هي إلا وسيلة لزيادة عذاباتنا وآلامنا وليس وسيلة لتخفيفه كما كنّا نظن، ففي كل دمعة تسقط معها صورة كانت معلّقة بشجرة الذكريات.

مهما بكينا الحبّ وندبناه، فالماضي لن يعود، وإن عاد فلن تعود معه، الحاضر لن يأتي بك، والمستقبل مازال مجهول المعالم، وربّما لا يكون لنا لقاء لحبّ يجمعنا، فحاستي السادسة لا تخطئ بتاتاً.

كيف أبكي يا من كنت حبيبي في ليل الحنين الطويل، وأغرق الوسادة بعبرات كثيفة لا تطاق، تشعل مقلتيّ جمراً ملتهباً، وأنت... آه منك أنت... تجلسان معاً على ضوء

القمر تتسامران حبّاً، أتذكّر هذا، فأمسح دمعتي وكبريائي يناديني ألّا أبكيك، يرفض كبريائي حتى أن أذكر اسمك. فاسمك أضحى من المحرّمات.

في كلّ مرّة أسامحك فيها وأقبل أعذارك اللامتناهية، أمسح دمعتك اليتيمة والوحيدة جرّاء خيانة خانها قلبك لي، حين أمسكتك بالجرم المشهود، فتقلب اللعبة لصالحك، وتبدأ دموع «التماسيح» بالانسكاب، أترك العنان لقلبي ليحكم «هو» بيننا وأسجن عقلي في زنزانة عميقة كي لا يخبرني بأنني مازلت غبيّة وأستحق ما يحدث لي، قلبي هو القاضي والسجّان والمغدور أيضاً، أيرضيك أن يحكم قلبي بيننا؟

يصدر فؤادي الحكم فيحتضن قلبك من جديد فاتحاً صفحة بيضاء جديدة كعادته، لعلّها تكون الأخيرة، وفي كلّ مرّة أقنع نفسي وأقتنع أنكّ أتيتني نادماً هذه المرّة ولن تعيدها مرّة ثانية.

ها قد أعلنت بملء فيك ألا حياة دوني تعيشها، كالماء أنا لا تعيش بدوني، أيعقل هذا؟

إذن وماذا بعد؟ سأخبرك أنا ماذا بعد؟

خيبة تلتها خيبات عنيفة كسرت ظهري... خيانة تلتها خيانات عديدة جرحت قلبي. خذلان صغير لحقه فيما بعد خذلان أكبر أدمى فؤادي.

ألم... دموع... عذاب... قهر... وحدة... غربة... غدر... حتّى انتهى كل شيء واستطعت اقتلاعك من حياتي كما يقتلع العشب الضار من الحقل.

انتهى أخيراً كل شيء، انتهى سريعاً وسهلاً بالنسبة إليك، وبصدمة قاسيّة بالنسبة إلي، كنت أتمنى أن يأتي ذلك اليوم وإن طال، اليوم الذي تنزع فيه رداء الغدر وتعود إلى أصلك الأوّل حين التقيتك. لنبدأ حينها بدفترٍ جديد ناصع البياض. لكنّك لم تحاول أن تفتح تلك الصفحة فكيف لي أن أفتحها عنك، في نهاية كلّ خيانة كنتَ تقول: (لنفتح صفحة جديدة) وكنتُ أوافقك في هذا، أكنت جادّاً فيما تقول، ولكنّ أهواءك تغلبك كما العادة. أم كنت تكذب عليّ كي لا أرحل عنك. أجاريك في لعبتك... لنفتح صفحات

ناصعة البياض، ولكن أفاجأ بالدفاتر والكتب التي فتحناها معاً كيف اسودّت من أعمالك الدنيئة.

حين تأتي من جديد إليّ، وتلتقي دروبنا وتقترب كثيراً ليصبح همسك مسموعاً، ماذا ستقول حينها؟ وكيف ستعتذر؟ عن هجر دون مبرر؟

في آخر لقاء جمعنا في بيتنا اللبناني، كنت أكتب عنك وأعاتبك كثيراً في حسابي الخاص الذي لا أحد يعرفه غيرك، أكتب ما يحلو لي، أستطيع هجائك فيه، سأكتب عنك وأشتمك. أكتب عن غدرك وخياناتك وأعذارك وصدّك وردّك البارد. كنت تكره كتاباتي تلك فلا تعجب بها وكأنّها لم تمرّ من تحت يديك، لأنّي كنت أسلّط الضوء على جرائمك بحقّ أنوثتي.

أهرب منك إليها، لأنّك وبمنتهى البساطة أعرضت عن سماع عتابي، وسددت أذنيك كي لا أسألك سؤالي الذي لم ألق جواباً عليه إلى الآن (لماذا؟). كنت لا تسمح لي إخبارك بما يعتلي قلبي من ألم سببه طيشك الدائم.

إذن لا تظنّ أنّي سأترك الكتابة لأجلك وتدرك عظيم عشقي لها، فهي تساعدني وتمدّ يديها للهروب من نارك وجحيمك إلى أحضانها، فأكتب عنك ما أشاء دون أن توقفني يدك الغليظة.

الكتابة هي عالمي الذي أحيا فيه، عالمي الثاني الذي يبكيني إذا انكسر قلم أودعته جلّ أحلامي، أبكي حين ينفد الحبر وفي جعبتي آلامٌ كثيرة تنتظر دورها لكتابتها، أبكي حين أبدأ بالكتابة وتهرول الكلمات منّي إلى البعيد، فأضع حينها رأسي بين يديّ، وأعصر خلايا دماغي لعلّها تهديني حكايات أكتبها وأعاتبك بها.

منذ فترة طويلة قبل لقائك بسنين عديدة انكسر حينها قلمي، مازلتُ أتذكّره. قلم رصاص نحيف جدّاً لونه أزرق فاتح يميل إلى الرمادي، وفي جعبته تكمن قصص عديدة. بكيته حينها كثيراً، فهو وإن كان قلماً صغيراً فقد كان فعله كبيراً جدّاً، وكان صديقاً لي في الأزمات وشاركني الآلام كما شاركني الأفراح، وانتهت مهمّته الطويلة بموته

مقسوماً إلى نصفين، احتضنته بين ذراعي كطفلي الأوّل الذي لم ير الحياة بعد، مات جرّاء إجهاض متعسّف، أطلقت تنهيدة ألم طويلة، حيث كان عاشقاً لي، أبثّه لواعجي، فيبثّها هو بدوره للورقة منمّقة مزيّنة، وسقط مضرجاً بدمائه فدفنته في أوّل مقبرة، أتراك قلمٌ كي أبكيك وأرثيك؟ أم تراني سأفتقدك كقلمي هذا الذي يمنحني الحب حين يكون بين يدي طفل مطيع؟

وبعد مرور سبعة أشهرٍ على غيابك غير المسوّغ تعتقد أنّي مازلت حواء التي تذرف الدموع وكادت تموت قهراً بمجرّد أنك غبت عنها.

اعذرني إن قلت لك: كلامك هذا فارغ كعقلك الفارغ، فأنا امرأة لا تبكي إلّا على حروف ضاعت منها أو كلمات هربت منها بعيداً عن مرأى ناظريها.

وبدأت أكتب عنك في دفتري الصغير ذي الغلاف السماوي، وعليه تبدو ماشا كلعبة هي ودبّها وقد تزيّنت كأنها ذاهبة إلى حفل عيد ميلاد.

دفتري ليس سميناً كما تعتقد فهو نحيف كقلمي الذي مات بين أناملي، ملوناً بألوانٍ زاهية أرجوانيّة وصفراء ووردية وبيضاء. بدأت الكتابة فيه فتوقّفت عند كلمة يأس، حاولت تمزيق دفتري ورميّه من النافذة كي لا أعاود استرجاعه، بالله عليك من أوجد هذه الكلمة ليحاربنا بها؟

هل كنت يائسة حقّاً من دربٍ يجمعنا معاً لأبدأ بهذه الكلمة التي أضحت من ألدّ أعدائي. مع ذلك لا أريد لدربينا اللقاء، أريدك أن تلتقيني في حال أكون بعيدة عنك كل البعد الذي تخشاه، تتمنى قربي وقلبك خائف منّ اللقاء.

أغلقت دفتري كي لا أتهوّر وأرميه لأستحضرك في ذاكرتي حيّاً تعيش فيها من جديد، فلعلّها تأتيني بك بذكرى سيئة جمعتنا، لأعاود كرهك من جديد، فألعنك ألف مرّة بعد التسعة آلاف.

وقفت بجوار النافذة وفتحتها فداعبتني نسماتٍ من هواء يوليو الحارقة والشافية للروح، بكيت حينها، أخرجت ما في قلبي من آلام وأودعتها في صرخة مكتومة، شهقت

وناديتك فلم تلبّ النداء، فالذكريات التي هاجمتني حينها كانت جميلة إلى حدِّ الألم. جميلة تلك الذكريات كطفلة في الرابعة عشرة من عمرها تضجّ أنوثة وحياء.

مسحت دموعي... كتمت شهقتي ووضعت يدي على فمي كي لا تخرج صرخة أخرى. ثم ابتسمتُ... لا أدري لم هذه المزاجيّة في تصرّفاتي الغريبة؟

ليس بيدي حيلة، سأبتسم رغم الأوجاع. لن أدع اليأس يسيّطر عليّ كلّما لاحت لي صورتك كملاك رائع، كيوبيد الحبّ أنت، لن أدع الذكريات تهاجمني كلّما رأتني في سعادة لاقتلاعك من حياتي للأبد.

أنت الذي اختار الفراق وأنا من قررته، فأنا من صممت على الصمود للنهاية. سأنجح... أعدك بذلك ستراني يوماً في قمّة نجاحي متربّعة على القمّة.

سأغدو قوية وستراني شامخة كالنسر في عليائه، وسأقنع ذاتي قبل إقناع غيري.

تلك الصخور الصمّاء لن أتوقّف عندها كما فعلت في المرّة الماضية، سأزيلها بابتسامة صافية تنبع من قلبي، بثقة بالنفس لا تخمد سأزيلها، وسأمضي فرحة كطفلة صغيرة تمسك بيد أمّها وتسير بجوارها في دربٍ طويل، لا تعرف نهايته، ولكن ثقتها بأمّها هي من قادتها إليه، فتركت والدتها تسيّرها مطمئنّة واثقة أنّها لن تضيع. فكيف أضيع ورب الكون هو من يسيّرني وهو الذي يمسك بيديّ إلى النور، حيث لا مكان يجمعنا معاً، إلى عالمٍ آخر، لن أضيع فيه.

إلى عالم آخر سأركض، حافية القدمين، الدموع فيه مستحيلة، لا مقاعد للحزن، عالم ربما سيكون فيه دروب متعرّجة وقاسية ومظلمة وشاقّة؛ ولكنّها ليست بالمستحيلة. دروب ينبت على حافتيها الأمل كما ينبت الورد.

أصبحت أقوى بفضل خيباتك الكثيرة، بتّ لا أخشى شيئاً من هذه الحياة، كلّ ما كنت أخشاه أصابني في مقتلي ولم يقتلني.

مرّت هذه الأيّام التي حدّثتك عنها سريعة كما البرق، وجاءت أيّام تحمل الألم كما تحمل الأمل، وبتّ أعرف ما تضمره لي الأيّام فصرتُ أتحايل عليها كي لا تجد ما تعطيني إياه سوى الضحكات والسعادة.

ولأوّل مرّة أنسج أحلاماً لا تجمعني بك، أحلامي كبرت وصرتُ أنسجها على ضوء القمر حلماً حلماً، وكأنّه لا وجود لك في حياتي من الأساس. كأنّك لم تكن حيّاً في فؤادي يوماً.

عابر سبيل أنت... بدأ ومضى وانتهى ليأخذ قلبي معه لأشهر لم تكن بالسهلة إطلاقاً. وأخيراً استعدت قلبي منك بكلّ ثقة منك.

فلن أناديك بعد اليوم، أنت الذي كنت حياتي، وأصبحت بفعل غادر لا شيء البتّة، واستحضرت ذكرياتك السيّئة كي تهاجمني في وحدتي فأنفر منك أكثر وأحقد عليك أكثر.

* * *

كان ذلك قبل سنتين أو ثلاث، بتّ أنسى كثيراً، لا عليك في ذلك، الكل ينسى ما عداه سبحانه، أنتفق في كلّ شيء ونختلف في حساب السنوات. كعادتك أنت تحفظ التفاصيل الدقيقة وأنا لا أهتم سوى للتفاصيل المهمّة فقط.

بحركة عفويّة مني، وبقلب طيّب لا أقصد من ورائه الأذى، أقسم لك أنّي لم أقصد حينها التجسس عليك، لم تنس قسمي في تلك الليلة حين أقسمت بأني لم أقصد ما فعلته معك، ولكنّي لم أندم على ما فعلت، تعرف بأنّي لا أندم على شيء فعلته أبداً وإن كان ما فعلته هو الخطأ عينه.

وضعت بريدي الإلكتروني الشخصي في هاتفك كي يسهل عليك الدخول إلى هاتفك حين تنسى كلمة السر، طالما أردتَ أن يكون لك بريد إلكتروني في هاتفك، وبدلاً من صنع بريد جديد لك وضعت بريدي أنا لتسهيل الأمر عليّ.

وبعد مرور دقيقة على إتمام الأمر رأيت هاتفي قد امتلأ بالأرقام الموجودة في هاتفك، وهاتفك امتلأ بالأرقام التي ضاق هاتفي بها، لم أخش شيئاً، فلا وجود في هاتفي لأرقام أخشى أن تصلك، فأنا كما قلت لك لم أخنك إطلاقاً ولن أخون وفائي لك ما حييت. كما قالها «ديستوفسكي» لزوجته وهي على فراش الموت (لم أخنك ولو في الذاكرة)، صدّقني لم أخنك ولو في الذاكرة، وفائي لك تجاوز الحدّ ومع ذلك كنت راضية بهذا الوفاء والإخلاص.

التزمتُ الصمت ولم أنبس ببنت شفة، أردت استكشافها، لمن تعود؟ إنّه فضول الأنثى وأصبحت كشارلوك هولمز في تحقيقاتي، وبدأت بالاتصال بهم، رقماً يتلوه آخر فيتلوه آخر إلخ.... وجاءني الرقم الأخير فإذا صوت أنثوي بالغ النعومة يردّ علي. بدأت بالحديث معها سألتها بالله عليها من تكون؟ أخبرتني أنّها حبيبتك الجديدة وهي ليست من بيئتك كما تفضّل. كانت من اللاذقيّة، أتراك لذلك رحلت إلى هناك ولم تعد. وترفض العودة؟

فهمت الآن رغبتك الملحّة للسفر إلى هناك، كنت قد كررت على مسامعي سفرك الملح إلى اللاذقية بغية دخولك تركيّا وبعدها تنطلق إلى أوربا.

الآن أدركت لماذا كنت ترجوني ليل نهار كي ترحل إلى بلاد لا أكون فيها. بلاد اخترتها وحدك بعيداً عنّي. بلادٍ لا يربطها بهذه البلاد سوى بحرٌ واحد ممتد على أطرافها.

بكت الفتاة حينها ولو كنت جانبها صدقّني لقمت باحتضانها وبكينا معاً، قد هامت بك ورسمت أحلاماً تعيشها على فراشك، لم تكن تدري بزوجتك ولا بطفلتيك، كنتَ قد رسمت لها أحلاماً في الهواء تعيشها.

اعتذرت الفتاة منّي بطيبة وأدب، أحببت تلك الفتاة، لا أدري لماذا؟ ربّما لأنها الضحيّة الأولى التي لم تدرك خبثك بعد، اختلفت الضحايا، لكن الجاني واحد.

سمعت منها عنك أشياءً كثيرة جاءت كصفعة على وجهي، وتركتني ساعة في ذهول لا يصدّق.

اعتذرتَ ببرود شديد، وأنبّتني لفعلتي هذه التي لم أقصد منها شيئاً، كنتَ تعتقد بأنّي فعلت ذلك وأنا متيقّنة من نجاح خطتي.

لم تعد هذه الحادثة تهمّني الآن بقدر ما أهمّني اعتذارك البارد والقاسي. اكتشفت ذاك اليوم بدء استعداداتك لرحيل لا عودة بعده، لنساء أخريات مختلفات عنّي، لبنات هوى تهوى أجسادهن دون أن تفكّر بزوجة لك خلّفتها وراءك في غربة لن تكون رحيمة بها وطفلتين لم تدركا بعد معنى الحياة دون أبٍ يحميهن من حياة ستغدو قاسية عليهن.

حين أسألك في كل خيانة لك، ماذا لو جاءت ابنتك في المستقبل شاكية باكية من رجلٍ كانت تحسبه حبيباً وقد تلاعب بها؟ كان جوابك صادماً، بعد أن يشتدّ صمتك تقول لي بلسان كالسيف حاد وبارد: (لا أفعل شيئاً)، بالله عليك أخبرني ابنة من هي؟ من الأولى بحمايتها؟ أنت أم غيرك. فعلى الدنيا السلام إذا إن كنت لا تفعل شيئاً، لم تعد تفرّق بين شرفك يا آدم وبين بنات الهوى وبين زوجتك حتّى.

ومن هنا بدأت تنعقد أول خيوط مغادرتك إياي، كنت تبتعد عنّي بينما كنت أنا أقترب منك.

تخرج صباحاً في الساعة العاشرة حال استيقاظك ولا تعود للبيت قبل منتصف الليل، لتحلو لك الحياة وتنعم برغد العيش بعيداً عني.

ولكنّ إياك أن تأتي يوماً وتذكّرني بأيامٍ رائعة معك، حذارِ أن تأتي لتدعوني إلى منزل يجمعنا من جديد، إياك أن تأتي إليّ لتخبرني عن طفلتين هما لك وأنت الأجدر بهما مني.

هل ستعود يوماً حيث الحب ذات يومٍ جمعنا، وستحلّف بالله عليّ وباسم الحب الذي فرّقنا أن يجمعنا من جديد؟

لا أدري يا صديقي، أتسمح لي بمناداتك صديقي، فهي ليست ثقيلة على اللسان. لا أدري إن كنت وقعت في غرامي أم لا، كلّ ما أعرفه بأنّك لا تقبل التنازلات حتّى لو أضعتني وابنتيك إلى الأبد.

إذا دعني أرحل عنك الآن، وأقلب الأدوار، أنت المنتظر وأنا الغائبة التي قررت ألّا تعود.

سأرحل لترحل معي ضحكاتي وابتساماتي، جنوني وهمساتي. سأرحل عنك إلى الأبد، ربّما بملء إرادتي أو ربّما تكون أنت من قرر وأنا من نفّذ، أنت المخرج والمنتج والكاتب وأنا الممثلة التي يجب أن تقوم بأداء دورها على أكمل وجه، وربّما أيضاً تكون إشارة من القدر تسير عكس رغباتنا وعكس إرادتنا.

لن يتبقى لك منّي شيء سوى بعض الذكريات الطيّبة... قبلات... عناق... همسات عشق... ثرثرة حبّ. وستعود إلى مكان جمعنا معاً وستقف عند الغروب أمام ذاك البحر الذي وقفنا قبالته كثيراً وشهد على إهدائك إياي تلك الوردة الحمراء، لن أكون معك لتهديني وردة حين يمرّ ذاك الشاب الصغير وفي سلّته باقة من الورود الحمراء والأرجوانيّة، تبّاً له فهو لا يحمل في سلّته وروداً صفراء، ستنظر إلى غروب الشمس وحدك دون أن تسأل نفسك السؤال الذي كنت أسألك إياه أين ترحل الشمس حين تغيب، حينها كنت تردّ عليّ بصمت وتضحك لبراءتي العفويّة.

ستجلس على ذاك الجبل الذي اعتدنا الجلوس عليه، حيث كنّا نتبادل كلام الغزل ونلعب كرة القدم مع طفلتنا الصغيرة، ولكن لن أكون حينها، سترافقك ابتسامتي وضحكتي فقط، سيمرّ طيفي بجوارك يتأمّلك ليعتني بك، وإن كنت غائباً عنّي فأنا كما قلت لك سابقاً أعرف موعد حزنك ووحدتك، لن تراني بل ستتراءى لك ذكرى أصبحت في طيّ النسيان.

ستجلس على تلك الصخرة وحيداً تدفن رأسك بين يديك كما النعامة. مانعاً أي ذكريات من العبور لمهاجمتك، ثم تأتي تلك الدمعة الحارقة لتدرك أنّك غارقٌ إلى حدّ الثمالة في قاعٍ لن تخرج منه.

ستأوي إلى فراشك وحيداً، في غرفة كنت أشاركك فيها ولن أكون فيها الآن.

إياك ثم إياك أن تذكرني ولو كانت الذكرى قصيرة. ولا أريد أن تدعو لي بدعاء صغير لي وكبير لك، فأنا لا أريد أن يصلني منك شيء.

كفكف دمعك ولا تنهار، واعصر دماغك جيّداً سترى بأنّي كنت بين يديك طفلة مطيعة، وأمّاً تحتويك ولم تشعر بذلك، فرميتني إلى القاع متمنّياً الظفر بأخرى، ولكن حوّاء التي هجرتها لن تعود إلى حياتك من جديد.

الآن... وأنا بعيدة عنك كل البعد، حيث تفصل بيننا مدن كثيرة، إياك أن تذكرني وحاول نسياني فطالما كنت بين يديك وتناسيتني.

أعرف أنك تستطيع ذلك كما لو كان كبسة زر بالنسبة لك لتنتقل إلى عالم لا أشاطرك فيه.

فرحيلي سيعني الكثير لك وسيحمل لك الحزن الكثير، حينها ستدرك كم كنت بحاجة إليك عندما رحلت دون كلمة وداع. وتركت قلبي يناديك فلم أجد مجيباً لنداءاته.

M. A. M

٩/٧

الرسالة الخامسة عشر

لم أفاجأ برحيلك رغم صدمتي التي أوقعتني في ذهول دام قرابة السنة وأنا أعتقد بأنّ هذا كابوس وسينجلي يوماً ما، سأستيقظ صباحاً لأراك تربت على شعري بيدك الدافئة كي أفتح عيني، ولكن في كلّ مرّة كنت أستيقظ فيها لا أجدك بجانبي. أتوسد وسادتك في كلّ ليلة باكية، لم أغسلها أبداً لتحتفظ برائحتك كما غادرتها.

كنتُ واثقة بقدوم تلك الساعة وإن تأخرت فهي آتية لا محالة، ساعة فراقنا الأبدي حيث لا رجوع عن قرار اتخذناه معاً، كلانا يملك الكبرياء ذاته، ويعاند رافضاً العودة، ولو تأخّرت هذه الساعة فأنا في أتمّ الجاهزية لها.

قرأت آلام الفراق باديةً على ملامحك ومرسوماً في تفاصيل وجهك وإن لم تسرده عليّ. جميع تصرّفاتك باتت غريبة بعض الشيء وتبوح بما هو قادم، الفراق الأخير، لكنّك كنت عاجزاً عن إيجاد البديل، مازلت تبحث عنه لترحل وإن من دون أن ترفع يديّك عالياً في الهواء ملوّحاً وباكياً.

رغم كل محاولاتي لتجاهل هذا الخوف الذي يجتاحني والذي ما فتئ داخل ذهني يحرّضني عليك ويخبرني بأن لك ساعة رحيل أبديّة، فتنبّأت سابقاً بنهاية علاقتنا. ستنتهي علاقة حبّ دامت خمس سنوات فقط، ما زالت صغيرة لنقتلها قبل أن تكبر، لكن أنت من قررت ذلك وأنا من نفّذت فقط بدموعٍ غزيرة وكبرياء حاد شيّعت حبّي لمثواه الأخير، تلوت الصلاة عليه، ورثيته وحيدة دون أن تأتي لتشاركني عزائي.

لم أكن أعتقد أنّي أنا التي كنت أدعو لك على مدى خمس سنوات بالهداية وبعلاقة تربطنا في الجنة كما ربطتنا في الدنيا، إنه سيأتي اليوم وأعدّك شرّاً مطلقاً وأدعو عليك أن يرزقك الله بحواء ماكرة تمنحها الحب الذي منحتك إياه فتمنحك مقابله سهم غدر ليبقى عالقاً في قلبك ينزف ألماً كما فعلت بقلبي حين تركته وهربت منه.

أقوم الليل لأصلّي فيه، وأرفع يدي إلى من هو أرحم مني ومنك، أشكوك له وأبكي، أخبر ربي في كلّ ليلة بما فعلته بي، أناجيه وأطلب منه المغفرة لأنّي فضلت عشقك على عشقه وهو الأولى منك في ذلك. ترحل أنت إلى حيث تشاء ويبقى خالقي بجواري أحادثه وأبكي فيرسل ملاكاً ليربت على كتفي ويحرسني من غدرك الذي بات لا يطاق. لم أكن أتخيّل أنّني التي كانت تذوب سكراً في حبّك سيأتي يوم وتدعو خالقها أن يبعدك عنها.

بقلب مجروح لم يداو رفعت يديّ ونظري إلى السماء ودعوته أن يسقيك الكأس ذاته الذي أسقيتني إياه، لم تدع كما كنت تدعو سابقا (لا يفرّقنا سوى الموت) تبقى لي حبيباً مدى الحياة وأبقى لك حبيبة مدى العمر. هذه الدعوات انتهت صلاحيتها وأصبحت غير صالحة للاستعمال، هذه الدعوات أكل عليها الدهر وشرب، أصبحت دعواتنا أقسى كقسوة قلبك الذي لا يلين.

اعذرني إن قرأت رسالتي هذه ورأيت الكره يطلّ من ثنايا حروفي، فهو الحبّ ذاته الذي ملأ قلبي وأحياه، يتحوّل إلى كره عاصف، فعلى قدر الحبّ الذي كان يأتي الكره. ليس الذنب ذنبي إن كنتَ من قسوت قبل أن يقسو قلبي، ونسيت حبّ سنين جمعنا، إذا كنت تعدّه حبّاً. في الحقيقة كنت أعدّه أثمن من ذلك، بيتاً جمعناً وحياة خالية من أيّة مشاكل.

إذن سأبكي وفاءً لأيّامٍ جمعتنا فلطالما شيّعت حبّك لمثواه الأخير، راضية غير غاضبة بما كتب لي القدر.

حذارِ إذن إن رأيتني على طاولة المطعم الشرقي ذاك جالسة وحدي أنتحب على عمر مضى.

حذار أن تقترب لتمسح تلك العبرات المتوهّجة، دع الدمع مدراراً ولا تمسحه، دع العبرات تسيل شلالاً رقراقاً ولا توقفه، فحين كنت في أمسّ الحاجة إلى يدك لتمسح دموعي رحلت حينها غير آبه بها.

انظر إلى عينين ذابلتين ولا تتكلّم، فما زالت أسمع صمتك إلى الآن، أستمع إلى صمتي كما استمعت سنين لصمتك الجليدي وستسمع الكثير من الجروح الصامتة. حينها ستحدّثك عبراتٌ تمرّدت ورفضت السقوطً عن آلامٍ وقهر لن تحسّ بهما فلا تلمسها، سيحسّ بها فقط القلب الذي مازال يبكي صامتاً.

حذار أن تقترب من طاولتي كي تسألني أن أكفّ عن ذرف مزيدٍ من عبرات لا فائدة منها.

حين تراني في وضعٍ كهذا، وترى قلبي الذي جرحته كيف أضحى في غيابك وحيداً، حينها احزم كبرياءك وارحل دون الالتفات إلى ما وراءك كما فعلت منذ سنين مضت، كي لا أضيع مجدّداً في ساحتك القذرة.

كما تعلم، الحب عرفته على يديك، وصرت بفضلك أفضل تلميذة، ولكنّي ربّما كنت كسولة بنظرك لترحل عنّي ولا تعود، ولم تخبرني لم هذا القرار المفاجئ؟ هرولتَ باكراً قبل أن أستيقظ على وقع أقدامك في قلبي.

عاهدتك ألّا أعطي ما تعلّمته منك لغيرك، فأنت الأولى به ولا أحد غيرك يستحقّه، ومع كلّ ما فعلت معي ورفضك القاطع للجلوس على طاولة العتاب هربت كي لا أعاتبك هربت حينها، ولكنني لم أهرب لشخص غيرك أمهر بالحبّ منك، هربت منك إلى دفاتر أكتبها عنك وتكتبني بدورها، كتابات لم أحصها يوماً ولكنّها كانت شاهدة على غدرك وجراحي التي لم تداوها.

كم كنت توّاقة لأتجرّع منك كأس الحب الذي طالما أمتعت غيري بها، وكان من حقّي كزوجة لك أن تسقيني إياها، لكن كأسك شديد المرارة كالحنظل، مليء بالأشواك كما الصبار، فاعذرني إن حذفت من ذاكرتي كل الحروف التي تصفك كبطل لا يقاوم، تلك الحروف ضاعت منّي فقد كانت مجرّد أوهام لا أكثر، لا تأخذ كلامي على محمل الجدّ أرجوك، قد أصبحت في الآونة الأخيرة أثرثر بكلام لا فائدة ترجى منه.

إذن أخبرني أنت كيف أكتب؟ وماذا أكتب؟ ولمن أكتب؟ إذا كان الشخص الوحيد الذي أكتب له رسائل عتاب لن يقرأها. للأسف...

أأكتب عن حزن نبت في دروب مجهولة الملامح افترقنا فيها ولن تعيدنا الدروب؟

عن ألم سنين وأعوام من القهر حفظتها الذاكرة وتعيدها لي يومياً كمنبّه ساعة أخرق، صاحبه يستيقظ كل صباح قبل أن يرنّ؟

عن ساعة سوداء قديمة بنت عليها العنكبوت بيتها، وهي ما زالت تدقّ في ذات موعد الفراق لتذكّرنا بحجم الألم الذي في القلب قد حفر ولن تمحوه الأيّام؟

عن خيبة... تلاها جرحٌ... تلته طعنة اخترقت صميم الفؤاد؟

عن غدرِ سهمِ مازال إلى الآن عالقاً في الظهر ينزف دماً في المكان الذي سدّدت إليه رميتك... ورميتك لا تخطئ؟

أخبرني أنت ماذا أكتب؟ إن كان كلّ ما أكتبه لا يرضيك، أدري ماذا تريد منّي ومن قلمي، تريد منه امحاء الأثر الذي كتبه إلى الأبد، وألّا يأتي على ذكرك بتاتاً.

ولكن أخبرتك سابقاً... أنا كالندبة على الجبين، مهما حاولت إزالتها وخضعت لمختلف العمليات فستبقى آثارها على جبينك، تذكّرك بالحبّ الذي كان.

واثقة بربّي الذي لم تؤمن به يوماً، بأيّامٍ ستأتي تحمل معها الأمل، فالأيّام ستمضي كما مضت سنوات حبّك ربيعاً مزهراً. وستأتي أخرى رائعة كجمال مارس بإطلالته الخضراء الزاهرة. سأجلس وحيدة وأتصفّح ألبوم الصور الذي يرقد معك حالياً محتفظاً به، خائفاً عليه، وعدتني أن تعطيني إياه ولكنّك طلبت مني عهداً صغيراً ألا أقوم بتمزيقه. أما زلت تذكر تلك الأيّام وتريد منها أن تبقى صورها حيّة فلا تموت كما ماتت أرواحنا.

سأتصفّح حبّك الواضح لي في ألبوم الصور، أفكّر كيف عشقت أحمق مثلك، لا يمتّ للحبيب المثالي الذي تتمنّاه كل فتاة بصلة. وسترحل ذاكرتي إلى البعيد، فأنّى لي أن أنسى غدراً أصابني في الفؤاد، أغلق ذاك الألبوم وأنا شاردة الذهن فيه، لن أقوم ببترك من

صوري، سأدع الصور كاملة كما كانت، لتبقى صورك في قلبي أنيقة كما كنت ذات يوم، لست جبانة لأفعل ذلك صدّقني.

سأبتسم بعد أن أرجع ذاك الألبوم إلى مكانه، سعيدة لأنّ عمري الباقي لم يحترق معك. في مستقبلي ربيع باسم، وصيف مشرق، ماذا عن مستقبلك؟ تبّاً لي مازلت أفكّر بك كأنّك مازلت تعيش في قلبي.

سأكمل حياتي كما كانت قبل أن نلتقي، فأنت كالزائدة الدودية زائد على حياتي، ويجب استئصالك قبل أن تقتلني، باستثناء حياتي الجديدة التي أزهرت بطفلتين بريئتين كسماء صافية لا تعكّرها السحب السوداء.

سأعيش معهما عمراً كاملاً من الحبّ والحنان، اخترت دربي أخيراً، لأجلهما سأعيش، فالحبل الذي يربطني بك مزقّته إلى أشلاء وساعدتك في ذلك، راضية غير غاضبة. لأجلهما سأحيا وحين يسألانني عنك سأخبرهما كان عابر سبيل، وولى اختفى كضوء قمر في ليلة شتويّة ملبّدة بالغيوم.

* * *

إذن كان ذاك في ديسمبر من السنة الفائتة، حين أحببت أن تنهي سنّة معي لتبدأ سنة جديدة مع غيري، اتخذت حينها قرارات كثيرة أنا في غياب عنها، كان أوّلها سفرك المزعوم إلى أوربا، حيث يعيش إخوتك، لم يكن يهمّك الدولة التي ستختارها (برلين . استوكهولهم . امستردام) كان ما يهمّك هو الهروب. الهروب فقط لا غير. أخبرتني حينها كطفلة سافر أبواها إلى السماء ولا تدرك أين هما، فجلست تخبرها بيتمها الجديد، سنصبر لا بأس، سنتان أو ثلاثة وفي النهاية سنجتمع من جديد، وصدقّتك كتلك الطفلة الصغيرة، لا يهمّ السنوات، ما يهمّ هو النهاية... سنجتمع من جديد.

ومع أنّي رافضة كل الرفض لسفرك المزعوم هذا ولكن ما باليد حيلة، إذ كنت قد قررت وبدأت بالتنفيذ، كان جوابي هو آخر ما يهمّك، وإن بكيتك لأ لا ترحل فلن تلمح

الدموع تلك، كنت تنظر إلى حيث لا أستطيع أنا الرؤية. ترى ما لم أجرأ أنا على سؤالك إياه.

ومع ذلك عارضت سفرك وبشدّة، رجوتك ألّا تتركني في غربة لا أهل لي فيها، لن تكون الغربة رحيمة على أمّ ما زالت في صباها وطفلتين صغيرتين بحاجتك كما بحاجتي، لكنّك مراوغ بارع، ثعلبٌ مكار، ذئب غدّار، حاولت إقناعي بشتّى الوسائل السهلة والسريعة. واقتنعت كأنني واقعة تحت تأثير مخدّرٍ.

وبدأت أساعدك في ذبحي وسلخي كما الشاة، حدث ذلك حينما بدأت بتشجيعك على المضي قدماً، فلا تهاون ولا تباطؤ، كنت أحفّزك على السفر حيث لا نلتقي أبداً، كنت غبيّة بما فيه الكفاية لأظنّ أنّ سفرك هذا سيقرّب المسافات بيننا، ستحنّ وتشتاق، وتلعن الساعة مئة مرّة لأنّك وثقت بالمركب الذي أقلّك إلى هناك وأبعدك مسافة أميالٍ كثيرة عنّا، وعن وطنٍ لن تراه مجدّداً.

سأبقى وحدي جالسة على هاوية الانتظار، أنتظر ما لا يأتي، أنتظر ذاك المركب ذا الشراع الأبيض فربّما يخطئ ويعيدك إلى حضني الدافئ، وكلّي أملٌ أنّه سيعود يوماً إلى الأرض التي شهدت رحيله.

كنت أرغب بإبعادك عنّي وهروبك منّي كي نستنشق هواء وحدتنا وألمنا ونعود كالغرباء نتعرّف إلى بعضنا من جديد، كنت أرغب بعودتك كعاشق محترف لا يرى في الوجود سوى حبيبته، كأوّل علاقتنا هيامنا، كنت أريد البعد لجسدينا في حين قلوبنا تتلاقى في الفراق وكأنّنا لم نفترق.

أليس هذا رائعاً!! فأنت تعشق الأشياء التي تغيب عن ناظريك، حينها تتمنّاها وتنشدها وتسعى لبلوغها، وحين تكون بين يديّك تبتعد عنها كنبتة صبّار بحاجة إلى حضنك، فتقذفها بعيداً خائفاً من أشواكها.

وفي الأول من يناير الذي كنت دائماً تتناساه، تذكرته في هذا اليوم بالذات حيث يصادف عيد مولدي، صنعت لي حفلة صغيرة وكانت هذه الحفلة الأولى التي تصنعها

لي مذ التقينا، كان الوله يطلّ من عينيك الصغيرتين، لا تنكر ذلك، أستطيع أن أقسم لك الآن بأنّك كنت حينها كأنّك ذاهب إلى حربٍ العودة منها مستحيلة، كنت تودّعني بقلبك ولكنّي لم أفهم الرسالة إلى أن رحلت.

كانت الحفلة غاية في البساطة، كلّ ما فيها جميل، زادها جمالاً ابتسامتك الفاتنة التي تسقط قلبي كلّما لمحتها رُسمت على وجهك.

لم أعلم حينها أنك تنهي حياتنا بحفلة كهذه لتبدأ حياة جديدة في بيت أنثى أخرى لا تعرف عنك سوى اسمك وبعض المعلومات التي قدّمتها لها، لم أكن أعلم أنّك تتم الواجبات النهائية اتجاهي كي لا تندم لاحقاً وإن سألك أحدهم عنّي فستقول: أديّتها حقها ورحلت عنها.

حتى نهاية الحفلة كنت مصرّاً على إسعادي ورؤية ضحكتي التي تفتنك، كنت تريد إنهاء مهمّتك بخيرٍ وسلامة كي لا أحسّ أو أشغّل حاستي السادسة مع أنّي رأيتك وإياها في حلمٍ لم أتذكره جيداً، كنت أصرخ وأبكي في الحلم مستنجدة بك، لكنّك كنت مسروراً معها، حين استيقظت في ذاك اليوم القارص البرودة وأخبرتك بما حلمت دون أن أقترب منك، لأنّي كنت أدرك أنّ هذا ليس حلماً هذه حقيقة وعليك إخباري بها، كذّب ظنوني السيئة وأخبرني بوهمي الذي بتّ تكرهه، فصمتّ وطال صمتك ولشدّة طول صمتك نسيت الحلم.

على عكس يوم وداعنا وبرودة يناير تلفح وجوهنا رجوتك أن نذهب باتجاه الجبّل لعلّنا نقضي على الروتين والحياة القاسية التي حالت بيننا فنودّع بعضنا على ذاك الجبل ذي السهل الأخضر المنبسط، كنت أريد أن نلتقط صوراً تذكاريّة أراها حين تغيب، فأشعر أنك لم تغب، رفضت ذلك رفضاً قاطعاً، رجوتك لأنك راحل أن تجعل لك في ذاتي ذكرى حسنةّ كي لا أنساك مطلقاً وتبقى صورتك محفورة في قلبي محفورة إلى الأبد.

لم ترق هذه النزهة لك كنت مقطّب الحاجبين على الدوام مما اضطرّني لأعود أدراجي إلى البيت، محدّثة نفسي بأنّك لا تحبّ لحظات الوداع، ما زلت أحاول إيجاد العذر لك كي لا أكرهك أكثر.

هل مازلت إلى الآن تذكر تفاصيل صغيرة كهذه؟ هل تتذكّر ذلك؟ حيث رفضت يدك أن تعانق يدي وكأننا ذاهبان إلى طلاق، كلّ منا يفكّر في اتجاه آخر ويمضي في ذات الاتجاه الذي يفكّر به.

لم تر حزني وغضبي منك لأنك لم ترد أن تراه، أو ربّما رأيت الحزن يطلّ من عينيّ فتجاهلته. كنت حينها لا تطاق عصبي المزاج على الدوام، وكأنّك تحمّلني على كرهك، كي أتمنّى رحيلك عنّي بسرعة البرق.

وهذا ما تمنيّته أنا، رحلة أنيقة لك تأخذك بعيداً عني كي أرتاح قليلاً من مزاجيّتك القاتلة.

٦ يناير كان الموعد المرتقب، موعد رحيلك ومع كلّ التصريحات بوجود عاصفة ثلجية والطرق مغلقة إلّا أنك كافحت وناضلت كي ترحل، وكأنّك راحلٌ إلى حبّك الوحيد.

رحلت وتركت طفلتين نائمتين لا يعرفان بذلك، لا يعرفان أن لك موعداً مع حياة لا يشاركانك بها. ورحلت مخلّفاً إياي خلفك دون أن تضمّني وداعاً أبديّاً، لم تلمحني حتّى ولم ينطق لسانك بكلمة وداع واحدة.

ألهذه الدرجة أرهقتك وأهدرت حيويّتك كي تتمنّى رحيلاً كهذا الرحيل؟

باتت حواء في نظرك لا تطاق فهربت في فجر يناير قارص البرودة؟

بتّ تبحث عن ذاتك خارج دائرتي، صنعت دائرة لنفسك وهربت إليها؟

كرهت حياتك داخل البيت لتهرب إلى نساء أخريات؟

عند عبورك الحدود لا تنس أن ترتدي رداءك ذاته الذي خلعته قبل عبورك إلى هنا، فلعلّنا نلتقي في دروب معلومة الملامح بموعد أو بمصادفة يدبّرها لنا القدر.

وجلست على الأرض أبكيك بجانب الباب الحديدي الذي حال بيننا فأوصدته أنت جيّداً بعد أن خرجت منه، ربّما خشيت أن أتبعك فأبكيك على الطريق، ودائماً تنسى أنّ لحواء كرامة لن تشفع لها إذا لحقتك.

بكيتك كثيراً وكان ظنّي أنك ستعود يوماً ولن نفترق، ونسيت أن بعض الظن إثم. ومن رحل هيهات أن يعود.

أليست الأيّام الأربعة التي تلت رحيلك كافية لأنام على همسات حبّك وفي الصباح أستيقظ على رسالة منك تخبرني باشتياقك السريع لي. إن كنت تشتاق كما تقول رسالتك فلماذا رحلت وجعلتَ مدناً كثيرة تفصل بيننا؟ إلى هذه اللحظة لم يتغيّر الحبّ في قلبي، وضعت لك كما العادة أعذاراً كثيرة في قلبي كي لا أشوّه الحب.

وانتهت لحظة الحبّ بيننا دُمّر كل شيء حين وصلني خبر زواجك كعاصفة في ليلة صيفيّة لم أكن مستعدّة لها.

هناك حواء أخرى أخذت مكاني وصارت وحدها أميرة قلبك، تنتمي إلى قبيلتك وبيئتك، فصرتُ أنا الغريبة عنك وهي القريبة منك، وكأنّك لم تعرفني يوماً، ولم نكن عاشقين يوماً، رحلت وكأنّك لم تكن.

لم تحبّها كما أحببتني، واثقة من ذلك، فعندما أتيت إلى حضني هارباً منها، كان في هاتفك عشرات الأرقام لفتيات الليل، كنت تخونها وهي ما تزال عروساً جديدة، كنت تخون جميع نسائك مع أخريات.

إذن لماذا هجرت الحبّ الذي جمعنا؟ لترحل إلى أخرى لم يجمعك بها شيء فتهجرها بعد أشهرٍ قليلة.

أدخلتني في صدمة لم أنسها ما حييت، صدمة أتت من غدرك، أوقعتني في ذهول لا يصدّق، مرّت ساعة كرصاصة الموت بالنسبة لي، استيقظت من ذهولي لأدرك أنّ ما وصلني ما هو إلا الصحيح، وأيقنت أنّ فعلتك هذه واقعيّة وليست واقعة جرت في برنامج «كاميرا خفيّة».

حادثتك على الهاتف متمنيّة في آخر لحظة أن تخبرني بأنّي في حلمٍ وعليك إيقاظي منه، لكنه لم يكن حلماً بل كان أشبه بالكابوس. حاولت النفي لتخبرني بأنّها صديقة ليس إلّا، كنت أعرف كذبك على بعد أميالٍ أكشفه.

بدأت بأعذارك كما كلّ مرّة ولكن هذه المرّة لا تشبه تلك المرّات، الآن وقعت الجريمة بحقّي ويجب القصاص منك، فهل تقبل بحكمي وتخرج من حياتي بملء إرادتك كما دخلتها؟

تفوّهت بحماقات كثيرة، كأنّك مجبر على هذا الزواج، وأنت لا تريد ذلك، وأخبرتني أنّك أخطأت في حقّها وتزوّجتها لتصلّح خطأك، لم أفهم ذلك ولا أريد أن أفهم.

كيف وأنت قد سافرت من لبنان إلى دمشق كي تتوّج عريساً لها؟

عبرت الحدود وكنت على عجلة من أمرك فنسيت ارتداء ذاك الرداء، سافرت لتجدد سعادتك في حلمٍ ووهم جديد، ماذا عن سعادتي التي سرقتها حين رحلت عني، هل لي باستعادتها الآن منك؟ فأنا أولى بتلك السعادة منك.

لن أنفي ما حصل لي حين فعلت فعلتك الدنيئة، مرضتُ حينها ولم أجد دواءً يشفيني. كانت ابنة أختك الصغيرة التي لم تكمل بعد الخامسة عشر هي من تأخذني إلى المشفى القريب من بيتنا.

كان مرضي هو أنت وهم يدركون ذلك فتركوني أعبّر عن غدرك ورحيلك ببكاء متواصل. كرامتي أجبرتني ألّا أتصل بك، وكنت أنتظر منك اتصالاً مفاجئاً كي تخبرني أنّك تركتها لأجلي.

أخبرتك يا غبي لا امرأة على هذا الكوكب تحبّك كما أحببتك أنا، أنسيت أنّك وليد قلبي؟

واشتدّت بي الوحدة بعد رحيلك وكنت غارقة في وحل الأحزان لا يخرجني منها سواك. ساعدتني في ذلك جارتي الطيّبة وزوجة ابنها.

أتذكر نسرين؟ (جارتنا بالغربة) كنت تكرهها لأنّها كانت تحذّرني من غدرك الدائم، وكنت أستمع إليها وأحاول أن أجعلك بطلاً أمامها فأفشل، فهي أكبر منّي وتفهم في غدر الرجال أكثر.

نسرين هذه التي كنت تكرهها هي من كانت لي نوراً في غيابك، كانت الأمل الذي أستمدّ منه طاقتي. كانت شعاعاً ينير دربي الذي أظلمته، كانت مؤنستي في ليالي الوحدة. جارتي ونسرين حين علمتا بغدرك بكيتا، بكى قلباهما عليّ قبل أن تهطل دموعهما كشلال غزير على ما فعلت بي. جارتي أمٌ لي في غربتي الطويلة، ونسرين صديقتي وأختي ورفيقة أسراري، أهرب منك إليها وأخبرها عمّا تفعله بقلبي فتساعدني أن أنسى وأبدأ حياة جديدة معك، وفي كلّ مرّة أحاول فأفشل.

لم تتركني بتاتاً وبقيت في جواري سنداً لا أنساه ما حييت، شخصان يتذكرهما الإنسان، شخص تخلّى عنه وهو في أمسّ الحاجة له وشخص وقف معه حين تخلّى عنك ذلك الشخص.

كنت أبغضك... حواء التي تفننت بحبّك باتت اليوم أشد كرهاً من ذي قبل، دموعي لم تمسحها الأيّام، بكيتك ليل نهار، في سرّي وعلانيّتي، رجوتك في أحلامي أن تعود، كفاك غياباً، ألم تملّ من رحيل دون عودة. هلّا عدت إلى حضني من جديد فتعتذر كعادتك وتضمّني إلى قلبك كما كنت من قبل.

يُفتح الباب فأركض إليه متلهّفة للقائك، ولكن فرحتي تتلاشى حين تهزمني الدمعة وتنهمر، فأرى أخاك ولا أنت. أعود أدراجي إلى غرفتي أتوسّد عطورك لأبكيك ساعات متلاحقة.

حاولت إقناع نفسي بأن آدم انتهى من حياة حواء ولن يعود، حاولت إيقاظ نفسي من وهم لا تريد هي الاستيقاظ منه، يجب أن أبدأ من جديد، ولكن كيف وأنا في غربة لا صديقة لي ولا عائلة سوى ابنة أختك وجارتي نسرين.

أنام نوماً متقطّعاً بعد أن صار الأرق صديقي في وحدتي حال بيني وبين النوم. كيف سأراك في حلمٍ شهي إن كان الأرق لا يدعني. أستيقظ في الثالثة فجراً فلا أراك بجانبي أرى وسادتك فقط، تزداد خيبتي بازدياد وتيرة الحنين إليك، فتزداد العبرات وتنهمر سريعاً على وسادتك وهي ما زالت نائمة في حضني. أتلكأ قليلاً وبعدها أنهض لأتوضّأ

فألجأ إلى خالقي كي يعيدك لي كما أخذك مني. وأحاول النوم فأفشل، أحاول نسيانك بشتّى الطرق فأسقط في أوّل حفرة للذكريات.

سأحاول النهوض لا كرمى لك ولكن كرمى لطفلتين هما الآن بحاجة لي أكثر منك.

ها أنت تتصل بي من رقمٍ مجهول لا أعرفه، لتستمر في حفلة الكذب ذاتها، وأنت تعلم تمام العلم أنّي أدرك كذبك وأعرف متى تكذب ومتى تخبر بالحقيقة، ومع ذلك ما زلت مستمراً في الكذب.

ممثّلٌ بارعٌ «أنت»، لم تجد جمهوراً كافياً يشاهد تمثيلك الفاشل، فقررت التمثيل عليّ، وأنا جالسة في المقعد الأوّل أشاهد تمثيلك، منتظرة انتهاء المسرحيّة لأصفّق لك بحرارة وذهني مشغولٌ بك، هل ستنهي المسرحيّة لصالحي وستقف على الملأ وتعلنني حبيبة لك ولا حبيبة لك سواي، أم ستبقى واقفاً لتكمل مسرحيّتك الهزلية والرخيصة، ولكن حين تنهيها لن تجدني في ذات المقعد الذي أجلستني فيه.

تمثيلك هذا كان في سنوات خلت أفضل من الآن، بات تمثيلك فاشلاً وغير مقنع يا حبيبي... يا من كنت حبيبي.

لن أجيب على الاتصالات المتكررة فأنا أعرف أنّها قادمة منك، سأتجاهلها ريثما أستطيع أن أوقف نزيف حبّك من فؤادي الجريح.

تبعث لي برسالة تخبرني فيها بأنّك نادم أشدّ الندم وأنت ما زلت في أحضانها. كيف يحدث هذا الندم؟

تبكي لهذا وذاك كي تستدرّ عطفهم فلا أطلق حكمي الجائر بحقّك. تخبرهم عن مشاعر كاذبة تجتاحك وتطلب عونهم كي تعود إليّ حيث تركتني ولم أرحل، أيعقل ما فعلته بقلبي وتطلب العودة وكأنّ شيئاً لم يكن؟ وكأنّك لم تهجرني وترحل. بات قلبك من حجر لا يحسّ بأدنى شعور.

هل تعتقد بأنّي مازلت حواء الساذجة؟

بأنّي سأفتح لك قلبي مجدّداً لتكسر ما بقي منه؟

بأنّي سأصدّق كذبك وأفتح ذراعيّ لك، وأمسح على شعرك كما كنت أفعل؟

بأنني سأعتذر لك عن خيانتك هذه نيابة عنك؟

مخطئ أنت يا آدم، فهذه الترّهات هي محض أوهام لا تصدّقها.

اعذرني إن قلت لك لن أعود لرجلٍ خذلني مرّاتٍ لا تحصى، رجل كسر قلبي ورقص على جراحه، دعني بعيدة كلّ البعد عن خيباتك. دع أنثى غيري تتحمّل ما تحمّلته منك. هل ستصمد للنهاية كما فعلت أنا؟

بدا وجهي غريباً عني، حين نظرت إليه في المرآة بدوت وكأنني قد تجاوزت الثمانين من العمر وأنا مازلت في الثلاثين، لم أعرف وجهي أولاً. وخاصة بعد أن نبت لي بضع خصلات رماديّة، اختبأت خجلة خلف شعري الأسود، وكأنّها لا تريدني أن ألمحها كيّ لا أجتثّها من جذورها، ولكنّي أعدتها إلى مكانها قنوعة بها ومرحّبة بها وبأخواتها وإن كثروا، هالات سوداء كالحة مائلة للون الأزرق من كثرة الأرق، جفون حمراء منتفخة من فرط ما ذرفت عيناي دموعاً كثيرة، حبوب حمراء صغيرة اختبأت بدورها تحت الجلد لكثرة التفكير والقلق، الحزن مرسومٌ بعناية على وجهي ولا مكان للفرح فيه.

طارت ذاكرتي وحطّت عند سنوات بعيدة تاهت في قاع الماضي، فوجدتها ذاكرتي من جديد، نظرت إلى عينين ذابلتين ما زالتا تحتفظان بكميّة من الألم، وحاولت أن أبتسم رغماً عن الجراح ولكنّها خرجت ابتسامة صفراء شاحبة كما الأموات، إلا أنّي كررت المحاولة غير مرّة فخرجت أخيراً ابتسامة ناصعة البياض.

كتبت ألمي دون دفتر هذه المرّة ودون قلم، كتبته على صفحات «الفيس بوك». لأجعلها شاهدة على آلامي منك وعند كلّ سنة يعيدها إليّ «مارك» كهديّة لا أنساها.

لماذا لا أحاول تخطّي عتبة الألم؟ فلا يعقل أن تعيش أنت بنعيم بينما أعيش بجحيم.

خرجت لأنساك فوجدت الحياة ما زالت تسير كما تركتها حين تركتني، كنت وحدي واقفة في مكاني بينما الحياة تخطو خطواتها نحو السعادة.

ولكنّي تمنيّت ألّا تطأ قدماي الشارع، ففي كلّ شارعٍ ذكرى وفي كلّ ذكرى حزن يولد من جديد.

هنا مطعم صغير لصديقك ربيع أما زلت تذكره، مطعم للفلافل اللذيذة، كانت شهيّة جدّاً، مطعمه يقع في آخر الشارع الذي نقطن فيه. لن أذهب إلى هناك لأنه سيسألني عنك حتماً. سيسألني مراراً كلّما مررتُ بجواره، وسأبتلع غصّة في حلقي تكاد تخنقني، وأجيبه الجواب ذاته: مازلت في دمشق ولم تغادر مكانك.

إذن لنغيّر المسار، سأخطو خطوتي إلى الشارع المقابل، آه نسيت هذا المطعم شهد جمعتنا مراراً وتكراراً، على هذه الطاولة كنّا نجلس، إنها فارغة، ليتنا كنّا معاً لنجلس عليها ونتسامر ساعات فلا يقلق راحتنا أحد، كنّا حين ننهي سلطة الفواكه التي بيننا نعود إلى البيت سيراً، فالبيت قريبٌ جدّاً. إذن لن أخرج في هذا المسار أيضاً.

هذا مسارٌ جيّد وهذا المتجر سأبتاع منه ما يحلو لي، ولكنّ صاحب هذا المتجر هو صديقك أيضاً ولن يغيب عن ذهنه أن يسألني عنك.

تبّاً لك! كيف استطعت مصادقة الجميع ولم تترك لي مجالاً لأهرب من نظراتهم، فلا يسألونني عنك سؤالهم الذي حفظته غيباً (ماذا يفعل في دمشق إلى الآن) اختلقت لك أعذاراً كثيرة كي أبقى في نظرهم القويّة الشامخة، كي لا ألمح نظرات الشفقة تطلّ من عيونهم.

لم تترك لي شارعاً أسير فيه دون أن يراني أحدٌ ويسألني عنك، كأنني خبّأتك في قلبي خائفة عليك منهم.

إذن سأعتكف منزلي ولن أغادره، سأكتفي بالذهاب إلى نسرين كي أبكيك عندها فهي وحدها القادرة على وقف نزيف قلبي النابض بك والذي لا يكفّ عن نزيفه.

ولكنّ أنّى لي نسيانك وأنت كالعلقة في حلقي، فما بال صديقك ماهر يقف أسفل شرفتي، لا يراني ولكنّي أراه، أيعقل هذا وكأنّه يقول لي إذا حاولت نسيانه فعند رؤيتنا ستتراءى لكِ كل صوره. نحن من سنذكّرك به فلا داعي لمحاولة نسيان فاشلة.

عليكم اللعنة جميعاً، وتبّاً لك. تركت شرفتي لك ولأمثالك لن أخرج إليها. وسأغلقها كي أمنع هواءكم من الدخول إليها.

سأعتكف في غرفتي ولن أغادرها وأطهو الطعام، ولكن آه!! كم يحبّ آدم هذا الصنف من الطعام.

أحدث نفسي: هذا الفستان كم مرّة لبسته وتغزّل بي وبجماله على جسدي.

وطوال الليل والنهار أتذكر: هذا ما يحبّه آدم وهذا ما يكرهه، هكذا ينام، وهكذا يستيقظ. كيف أنساك ومازلت تعيش في ذاكرتي؟

ابنتك ذات الخمسة أعوام ما زالت تنتظرك تفتح التلفاز على مباراة لكرة القدم، حين أسألها لماذا؟ كانت تقول إنك ستأتي لتشاهدها، فتترقرق الدمعة في عيني هذه المرة لا عليك وإنّما على طفلة ما زالت تذكرك في قلبها، رافضة سماع مقولة إنّك سافرت ولن تعود. أغلق التلفاز وأخبرها كما الفتاة الناشئة بأنّك لن تعود، هي لا تبكي بل قلبي الذي يبكي.

إذن دعني أخونك وأعيش الهوى دونك، دعني أخونك وأعيش عمراً جديداً دون النظر إلى الساعة الهرمة وكأنّها تعلن موعد مجيئك، دعني أخونك فأنتزعك من فؤادي كما ينتزع السهم من صدرٍ غُرس فيه فأضحى كتلة من اللحم، دعني أخونك وأعيش حياتي كما كانت قبل أن تأتي وتعلنها ثورة.

أعود كطفلة لا أفقه بالحبّ شيئاً، أرسم الطبيعة ونهرها الجاري من أعالي جبالٍ بيضاء، تنبت الورود على حافتيها، وأشجار التفاح ترقص على جانبيها.

دعني أعود لقصص الحبّ والهيام، أحقد على بطلٍ أتخيّله «أنت»، وأحزن على بطلة أراها «أنا».

دعني أكتب عنك فبين أحرفي نبض ينطق باسمك، دعني أعيش حياتي الباقية كما أحبّ لا كما تحبّ.

إذا لم تعجبك كتاباتي ولوحاتي فلا تأتِ، لا تأت إذا أردت الرحيل.

لكن قف قبل أن ترحل وأعد إليّ ذكرياتٍ وأحلاماً وبعض الهيام. وابق حيث أنت فما عدتُ بحاجة إليك.

M. A. M

١٠/٧

الرسالة السادسة عشر

كنت أتمنى يفضل جنبي.. وأعيش العمر هنا وياه

كنت أتمنّى قضّي حياتي.. كلّ حياتي الحلوة معاه

كنت أتمنّى.. ومين تمنّى وخد من الدنيا اللي اتمنّاه

مش أنا.. لا مش أنا

هو اللي اختار.. هو

كانت صديقتي في وحدتي... حفظتها غيباً لكثرة ما ردَّدتها، خمس مرات في اليوم أليست كافية؟ أسمعها فيزف قلبي ذكريات لا أنساها.

وكأنّ محمد حمزة كاتب هذه الأغنية قد كتبها لي، أنا وأنت بطلاها. ومع أنّ الأغنية كتبت قبل ولادتي بسبع سنوات إلا أنّها تمثّل حياتي بشدّة، وكأنّه استوحى فكرتها من حياتنا.

حين كنّا نجلس معاً وكنت تغنّي معه بصوتك الدافئ، لم أكن حينها أهتم لمعناها بقدر ما كان يهمّني صوتك الدافئ، ومع مرور السنوات كنتُ حين أسمعها تنسكب مني دمعة نشأت من قسوتك، تبادر لضمّي إلى صدرك ماسحاً تلك الدمعة وإن لم ترها، كنت تشعر بها، تعتذر بطريقة غريبة، فلا ينقص من كبريائك شيء. أمّا كلمة (اعتذر) فهي إهانة لك إن قلتها وإن كنت المخطئ، كنت تعرف أنّي حزينة بسببك ولكنك لم تسألني، فقد تعرف السبب ولا حاجة لسؤلك، سؤالاً تعرف أنّ له أجوبة عديدة وتصاحبه دموع غزيرة، كنت تقصر المسافة وتضمّني إلى صدرك وتمسح دمعتي، تدرك أنّ هذه هي نقطة ضعفي، حنانك وحضنك هما ما كنت أتمنّاهما، فلماذا أبعدتني عنهما؟

والآن وقد صرتُ وحدي، أيحقّ لي أن أسمعها فأرثيك وأبكيك، وأرثي ذكرياتٍ ما كنت لتحن إليها، أمّا هي فقد تخلّت عنك لتهاجمني وحدي، هربت منك إليّ، واحتلّت الجزء الأكبر من ذهني لتعبث بحياتي كما يحلو لها، لتتركني جسداً لا حياة فيه.

* * *

أليست كافية الشهور الأربعة التي غبت عنّي فيها دون أن تسأل ما فعلت بي الأيّام في غيابك، أليست كافية لأعيش في متاهات الحزن والوحدة، لولا نسرين وابنة أختك الصغيرة الطيّبة لكانت حياتي أقسى، ولكن الوجع ما برح مكانه، وجدت ابنة أختك أحنّ منك عليّ، لم تتركني وحدي ثانية واحدة. كانت تنام في غرفتي كي لا أفتقدك، حاولت إبعادي عن ذكرياتك بجميع الطرق، حاولت مراراً إخراجي من عزلتي، وضعت برنامجاً لذلك ولكنّي خرقته، فصورك تتزاحم في عقلي رافضة الخروج منه.

رجوتها تركي وشأني، كيف أذهب معها إلى ذاك الجبل، وهو الذي شهد نزهاتنا. وكانت تفشل دائماً، ولم تيئس فتحاول من جديد.

كل الطرق سُدّت في وجهي، لا طريق يوصل إلى حيث هربت، دربك صعب وقاسٍ كصخورك الصمّاء. الأشواك تلتفّ على جانبيه كصبّار بحاجة إلى عناقٍ حارٍ كي يلين.

وانتصف مارس ولم تعد، أعجبتك لعبة الهجر هذه، فنسيت عيد مولدك في منتصفه، كبريائي منعني وهددني أنه سيقتلني إن اتصلت بك لأهنّئك ككل عام، لأحتفل معك.

أيحقّ لي الاحتفال وحدي بعيدة عنك بعداً شاسعاً، أحتفل فيه على طريقة خاصة، دون إحضار قالب حلوى وشموع لأزيّنه وأكتب حرفك الأول عليه ويليه حرفي، لن أطفئ شموع عيدك اليوم، ستطفئها أنت وأنثى أخذت مكاني، ستضمّك لتتمنّى لك عاماً جديداً

يجمعكما فلا تتفرّقان. ربّما «هي» لن تعرف كيف تختار لك هديّة، فهي لا تعرف ما تحبّ وما تكره. لن أفعل ذلك أنا، يكفيني أنني في وحدتي سأتمنّى لك عاماً سعيداً.

ربيع مارس ألهب فؤادي وأحيا في قلبي الذكرى، وهاجت كلّ الذكريات دفعة واحدة محدثة شرخاً كبيراً في قلبي.

في كلّ عام كنت أحتفل فيه معك يرحل خوفي إلى البعيد وأعيش تلك اللحظة الجميلة معك، أنسى وأتناسى خياناتك متمنّية لك أياماً سعيدة، ألا نفترق أبداً.

سأكتفي بكتابة رسالة لك، لن تقرأها أبداً... ولكن ما باليد حيلة لأوصل تمنّياتي لك بعامٍ سعيدٍ وإن كنت تقضيه مع من تستحقّك. ربّما ستقرؤها في يومٍ لن تراني فيه لا أنا ولا ذكرياتنا، ستدرك حينها وإن أتى إدراكك متأخّراً، كم كنت في أمسّ الحاجة إليك في هذا اليوم، فقط لأقول لك جملة صغيرة (عيدٌ سعيدُ حبيبي) وبعدها ارحل ولا تعود، اختفِ خلف الغياب ولا تعد. اختبئ بقلب شجرة الذكريات ولا تعد.

هلا تذكّرت حواء في مارس، ذاك اليوم الذي شهد مولدك، كيف تعيشه وحيدة دون ظلّك؟ آهٌ يا سيّدي!! نسيتُ أنّك تعيش في عسلِ حبّك مع امرأة غيري، ابتدأت قصّة حبّ جديدة مع أنثى هي من تصلح للحبّ أكثر منّي. لن تكون وحيداً هذا اليوم، فكيف ستسعفك الذكرى وتندم على تركي وحيدة.

أتجرع وحدتي كلّ دقيقة، ومع وجود نسرين وابنة أختك بجانبي إلّا أنّ مدينة لا توجد فيه أنفاسك هي خالية من أيّ بشري.

أخبرني بالله عليك واصبر على أسئلتي الكثيرة، كيف سأتقبّل فكرة انتهاء هذا اليوم دونك، دون أن أخبرك أنه يوم عظيم لي هو هذا اليوم، اليوم الذي ولدت فيه أنت واختارني الله لك لنكمّل روحاً في جسدين، ولكنّك اعترضت على مشيئة الله فهربت من قدرك في ليلة يناير قارصة البرودة، وبدأت تعبث في الحياة لاهياً عمن كانت لك قلباً وكنتَ لها عدوّاً، باحثاً عن حبّ جديد، عن قلب جديد يحتوي عبثك اللانهائي.

انتهى مارس ولم تنته خيباتك البتّة.

وعاد أبريل فكان أقسى من مارس بكثير، قسوته اشتدّت على قسوتك، عاد بنكهة يشوبها حزن وفرح، حزن بغدرك الذي لم ينس ولن ينسى، حزن لمجيء أبريل دون اصطحابك معه، وفرح باتصالك المفاجئ لتخبرني بندمك على ما كنت قنوعاً به وراضياً عنه، فأصدّق بأنّك غير مقتنع بما فعلت، وتخبرني بأنّك لن تجد مثلي في طيبتي ما حييت، لن تكون هناك امرأة تشبهكِ بشيء. وسمعت بكاءك من خلف شاشة هاتفي، كان شديداً سمعته آتياً من وسط دمشق فارتجّت له طرابلس لأبكي معك كعادتي حين تبكي.

أحسستُ بمدى العذاب الذي تتجرّعه يوميّاً جراء فراقي، فأنّى لواحدة أخرى غيري أن تفهمك، كنت بحاجة إلى حضني كي تبكي فيه، هكذا أخبرتني حين سألتك لماذا؟ لم يسعفك الجواب كعادتك، فضّلت الصمت على البوح بالحقيقة وكأنك ستخسرني إن قلتها.

قبل ستّ سنوات من هذا اليوم التقيتك أوّل مرّة قد كنت خجولاً على غير عادتك هذه الأيّام، وكنت كفتى لم يتجاوز بعد السادسة عشرة من عمره، حياؤه مبالغ فيه. أنيقاً ووسيماً، أغرمت بك وفتحت لك أبواب قلبي لتدخلها جميعها، نسيت أن أحذّرك ألا تعبث بأزهار قلبي، اعتقدتُ أنك لن تملك الجرأة لتفعل ما فعلت بقلبي ثم تتركه كصحراء مقفرة لا ماء فيها ولا نبات.

ربّما عشقتك من النظرة الأولى، أو من مكالمتك الأولى؛ وربّما من الحنان والاهتمام الأوّل، نسيت متى كان عشقي لك؟ ليس ذلك هو المهم. لن نختلف على هذا كعادتنا، المهمّ هي النهاية، عشقي إياك لم ينفد بعد؛ كنبع في واحة غنّاء لا ينفد ولا يضمحل، وسيبقى ينبع إلى ما شاء الله، يعطي الخير لمن حوله ويحيله واحة غنّاء كبيرة خضراء.

دخلتَ قلبي وأنرت شمسه وزرعت فيه أزهار الربيع كافّة، اعتقدت أنّك الراعيّ الطيّب وحوله الخراف السمان، ولكنّك أتيت وحدك دون الخراف وأحضرت المعول كي تحفر وتدمّر ما بقي منه كذئب مفترس غدار.

لم يعد في وسعي سوى أن أشكرك لأنّك كلّما حاولت الهروب والتخفّي تعود مجدّداً في أبريل، وكأنك تقول لي (نيساني أهداني إياك، وسأهديك نفسي في نيسان من كلّ

عام) باستثناء نيسان هذا فقد افترقنا قبله بأربعة أشهر فمرّ مرور الكرام دون أن أبكيك وكأنني شفيت منك. «فكذبة نيسان يجب علينا ألا نصدقها»

عاد إبريل يا حبيبي، عفواً يا من كنت حبيبي، مجرّد أخطاء تظهر في رسالتي لا تعرها جلّ اهتمامك. فما زلتُ أكتب حبيبي ومن ثم تباغتني الذكرى فجأة لأتذكر أنّك لم تعد كذلك، وهذه الكلمة أصبحت محرّمة في قاموسنا. سأمحوها لاحقاً، لا تهتمّ لها، ولكن ليت الذي بيننا كتب بقلم رصاص ليحمى بممحاة صغيرة.

عاد ممزوجاً بالحزن لغيابك والحنين لأيّام خلت وفرحٌ يخبرني بأنّك عائد إلى حضني من جديد، أول لقاء لنا شهده أبريل عرفت فيه ما هو الحبّ وجعلتك معلّمي وأصبحت تلميذة نجيبة ومطيعة. حين طرقت باب الحبّ فتحته لك وثغري مبتسم، ودعوتك «كسندريلا» حين دعت الأمير. توّجتك أميراً على قلبي الصغير.

لكنّ أبريل عاد الآن وضحكاتي تختفي خلف قناع من الأحزان، وقد اعتاد الجميع رؤيتها مزهرة، ذبلتُ حين غادرتني ولم أجد ساقياً يسقيني.

عاد ولكنّك لم تعد معه ومع كلّ يومٍ جديد فيه أموت لذكرى أتمنّاها لو توقظني من سباتي لتخبرني أنّك لن تعود، وإن عدت فستعود وتخلع رداءك قبل أن تعبر الحدود.

أيحقّ لي أن أبكيك فيه وأندب حبّاً جمعنا؟ أن أذرف الدمع حزناً على أيّامٍ سأقضيها وحدي دونك؟ أن أدع قلبي يبكيك لأنّك مازلت غائباً عنّي وعن أبريل؟ أم أبتسم لأنّ كل وردة فيه تغنّي لي ولحبّ لن يكون لك، لأيّامٍ ستكون أجمل ولن تكون أنت فيها. أعرف أنه سيأتي اليوم الذي أتخلّص فيه نهائياً من كومة الحبّ هذه ولكن لا أعرف متى هذه الساعة ستكون.

عاد إبريل وبيده شلال من الذكريات يمر على مراحل من سنوات الأمس، حيث كنّا حينها نغنّي للحبّ والهيام، ونرسم معاً أجمل الأحلام. كم ثرثرنا بعشقٍ لا ينضب، ولكنّه الآن نضب وانتهى وصار ذكرى أعيشها كلّ حين. مازلنا في بدايته تعال ولا تتأخّر عنّي

لعلّنا نلحق به معاً ونقطف وروده معاً، متى ستخون الخيانة لنلتقي؛ لعل الحياة تجمعنا في موعدٍ معاً.

فاتك موعدنا فيه ولم تعد، فلحقت على عجلٍ بمايو، وفي بدايته طرقت بابي ثلاث طرقات لا غير، لأدرك أنّ من وقف في الباب هو أنت، كيف لا أعرف ذلك، ومازالت دقّاتك على قلبي أسمعها كلّ حين، ركضت على عجلٍ وفتحت بابي لأراك واقفا مستنداً بجذعك على الجدار وتأخذني بين ذراعيك كطفلة عاد والدها من عمله متأخّراً.

هل حقّاً عدت كسابق عهدك تحبّني فتدللني وكأن الله لم يخلق غيري، تعشقني كأميرة لا ترى في الوجود غيري، أم إنّك خلعت رداءك قبل عبورك الحدود وعدت مراوغاً كالثعلب، يجب الحذر منه. وأقف في المنتصف بعد أن تنهي عناقك الحار وأحار أيّ طريق أسلك؟ هل أركض إليك من جديد لأختبئ في حنايا ياقتك، أم أبتعد عنك فلا أتعلّق بك وأبقى حذرة كي لا أتعلّق بشخص يحسبني كمباراة لكرة القدم ما إن تنتهي يطفئ التلفاز فينساها.

لا تكذب عليَّ لتقول إنّك لم تحبني، فقد رأيّت الحبّ يشع من عينيّك، والندم يكسو ملامحك، جلست على حافة السرير أتأمّلك وأنت تحتضن طفلتيك وبقلبي عتابٌ كبير لك، كيف؟ ومتى أبدأ؟ ولكن للأسف لم تسمح لي بالبدء في عتابك، كلّما أتيتُ لأسألك لماذا؟ لأحدّثك عن مرارة فقدك، وأسألك السؤال الأعظم في حياتي (لماذا كسرت قلبي؟) تعود وتلزم الصمت فأخرس عن الكلام، تريد عيش اللحظة فقط، ولا تريد للماضي أن يعود، الأيام الفائتة تلك حين كنت تعيش العسل وأعيش الوحدة يجب عليّ نسيانها لتبقى لك ذكرى العسل فلا ذكرى تعلو فوقها ولا منغّصات تنسيك إياها. غدرك الذي لا ينسى يجب نسيانه كي نبتدئ صفحة جديدة لا يشوبها شيء.

لن أكذب في ذلك إن قلت لك حينها بأنّي كنت متمرّدة عليك، وثائرة على كل شيء فيك، وكأنّك مستوطن أتى لانتزاع حقوقي منّي وأنا ابنة الأرض الطيّبة التي ستقاوم وتخوض الثورات جميعها في العدو.

بقدر حبّي كان كرهي لك بادياً على ملامحي، لم أطلب منك الشيء الكثير كلمة اعتذار بحقّي تمنحني إياها حتّى هذه الكلمة بخلت بها عليّ، هل هذا كثيرٌ عليّ؟ أذاقني غدرك ناراً لا تنطفئ؟ لكنك عاندتني حين عاندك الكبرياء وانتصر، فقلت لي بملء فيك وبكامل وقاحتك (إنّك لم تفعل شيئاً يستحقّ الاعتذار) لم أعد تلك الفتاة الغبيّة، أريد انتزاع حقّي منك بالقوة، فبفضلك أصبحت قويّة لا أخاف منك مطلقاً. إن كنت تريد الانفصال عنّي مجدّداً فأهلاً وسهلاً، وباب البيت تعرف مكانه، لن أمنعك من مغادرة حياتي فلطالما غادرت قلبي ولم ترأف به.

أصبحت امرأة معجونة بكبرياء حاد، لم أعد طفلة تبكي إن سرقوا منها حلواها، أو فتاة ناضجة تبكي على ظلّ رجلٍ غاب مع حلول الظلام ويظهر في الضوء ليعيد الاختباء في الظلام من جديد.

كنت تهدد بالرحيل الأبدي وأنا التي تبادلت الأدوار معك فكنت أفضّل الصمت على الكلام، أخبرتك أين يقع الباب، لن أتمسّك بك إن كنت قررت الرحيل، لم يعجبك كبريائي هذا وعنادي الجديد، حاولتَ إخماد جميع الثورات التي أشعلتها ضدك بقمعي بالتهديد والوعيد، لم تعجبك نظرات الازدراء والاحتقار التي تطلّ من عينيّ، وترمقك بها كلّ حين. أردتني أن أعود إلى طبيعتي التي كنتها قبل أن تقرر الرحيل، ولكن عد إلى ما كنت عليه حتى أعود إلى ما كنت عليه.

بدأت مشاكلنا تكبر وبدأت أصبح أكثر حدّة مما كنت عليه، وبتّ لا تطاق، كنت تفتعل المشاكل دون سبب فقط لتعطي لنفسك الحجّة للهروب من أمامي ولتخبر الجميع بأنني بت «نكديّة» لا أطاق.

وصل بك الأمر إلى الصياح في وجهي كلّما دخلت غرفتنا، ودون أي سبب بدأت بكرهي وكأنني عدوّة لك ولم أكن يوماً حبيبة. بات وجودي في حياتك جحيماً، وبات وجودك في حياتي جحيماً أكبر.

أعلنتها في وجهك مراراً وبأعلى صوتي ارحل إلى حيث تشاء، ولا تعد إلى هنا، حوّاء التي تفننت بحبّك باتت اليوم تكرهك، كيف يعيش الرجل مع أنثى تكرهه ولا تتمنّاه،

صرختُ وعيناي تذرفان دمعاً لعلّك تستوعب أن كلمة أكرهك ما هي إلا مرادفة لكلمة أحبّك فهلا أخذتني في أحضانك حينها لأنسى شهور الحرمان، ولكنّ كان حضنك بارداً ولم يكن دافئاً كما عهدته.

قسوتك اشتدّت وطغت على تلك الصخور وكسرتها، برودك طغى على الجليد وأذابه، آدم الطيّب الحنون مات قبل أن يعبر الحدود مجدّداً، آدم الذي تستعطفه بضع عبرات منهمرة على وجنتي حوّاء لم يعد له مكان. تغيّرت كليّاً وقلبك أغلقته بقفل لا أعرف مفتاحه أين وضعته؟ فتحته للجميع ما عداي، أصبحت قاسياً، غير مبالي، بارد المشاعر، هدرت مشاعر أنثى احتضنت حبّك سنين وسنين وهي لا تريد منك مالاً، كل ما تريده منك مبادلتها الحبّ بالمثل.

تعب قلبي منك كثيراً، فلا أنت خارج حياتي فأنساك ولا أنت داخلها فأحبّك. حبستني في دائرة غير مغلقة وقيّدتني بحبالٍ لا أستطيع فك عقدها، فلا أنت رحلت ولا تركتني أحيا.

ماذا تريد إذن وقلبك ينفر مني؟، أوليس الانفصال النهائي هو الحلّ لكلينا فلا تتعب أنت ولا أنا، هذا هو مطلبي إن لم يكن مطلبك، وأصرّ عليه وأركع عند قدميك أن تطلق سراحي فأرحل عنك رحيلاً لا عودة بعده أتوسّل إليك امنحني الحريّة، فلا أجد منك سوى الصمت الكفيل بإحياء نارٍ في قلبي لا تخمد.

أعطيتك خيارين في هذه الحياة، إمّا الرحيل ووعداً منّي ألّا تر رقمي يزيّن شاشة هاتفك، وإما العودة كما كنت وهذا هو المستحيل بعينه، حينما تعود لن أطالبك بحقوقي. ستبقى والد طفلتيّ ليس إلا، حتّى واجباتك اتجاهي بخلتَ بها عليّ ومنعتها عنّي.

أغرق وسادتي كلّ ليلة بدمعٍ غزير ينساب كشلّال لا يتوقّف، دموع صامتة تنساب ليس لها أيّ صوت كي لا أسمع تنهّداتك العميقة وبدلاً من أن تستدير لتحضن دمعتي أراك وقد استدرت إلى الجهة الأخرى لتعطيني ظهرك ولسان حالك يقول آدم مات. هيهات أن تفعل وتستدير وقلبك في عالمٍ آخر، مع نساء أخريات.

لم تعجبني الحياة هكذا مع نصف رجل، فأنا امرأة تكره أنصاف الحلول، إمّا أن تكو ن لي كاملاً كما أنا لك كاملة أو ارحل فلم أعد أريدك إطلاقاً.

صرخت في وجهك مراراً لعلّك تفهم الحرب التي تدور رحاها في قلبي فلم تفهم، ولن تفهم بأنّي امرأة تكره الشجار وأحبّ راحة البال كثيراً، خذ ما تريد وارحل عن عالمي، حتّى طفلتاك خذهما لكني موقنة أنّك لا تريدهما، فهما ستعكّران عليك صفو حياتك، اتركني وحدي لعلّي أجد ذاتي على قارعة طريق مهملة، فأقوم وأنفض ترابك عن جسدي وأقاوم الحياة وحدي، ولكن عبثاً تريد الاحتفاظ بي ولا تريدني حبيبة لك، فقط أماً لطفلتيك، إن كنت ترغب بذلك فأنا لا أرغب وأطالب بحقّي الشرعي منك.

وضاقت بنا السبل كثيراً وأدركنا أنّه آن لدربينا الافتراق ويذهب كلُ جسدٍ في اتجاه، ولكنّك لم ترد الابتعاد، كما هان عليك الاقتراب.

ونشبت الشجارات الأعنف بيننا، تراكمت سنوات من الخيبة في صدري لتحيله بركاناً سرعان ما انفجر في وجهك لأصفعك صفعة قاسية، صفعة محمّلة بالخيبات، كنت أتمنّاها أن توقظك من سباتك لترى ما فعلته بي. لم أندم عليها وتمنيّتها صفعات كثيرة تصيب وجهك، ربّما هذا العذاب تجمع في قلبي ليزيد الكره في فؤادي أضعافاً مضاعفة، كانت هذه المرّة الأولى، وتمنيّت لو فعلتها منذ زمن.

أحسست بنشوة الانتصار، أمّا أنت فبقيت مشدوهاً ثواني، لم تستوعب من بدأ بالصفعة، وكيف تجرّأت على سيادتك؟ من أين لي هذه القوة؟ وحين رحلت عني تركتني قطة عمياء البصيرة، لم تستوعب ماذا جرى؟ لم تبادلني الصفعة بصفعة أخرى فأنت أضعف من فعلها، التزمت الصمت كعادتك تحاول الحصول على تفسيرٍ لما جرى، هذا الصمت هو الشيء الوحيد الذي لم تغيّره حين غيّرت مجمل عاداتك.

وبعد عدّة أيّام من هذه الحادثة أخبرتني أنك بت لا تطيق العيش معي، لم تعد تحتمل رؤية وجهي بتاتاً، لذلك ستعود أدراجك إلى دمشق، ستعود لمن تركتها وحيدة هناك لا أحد بجوارها سوى أهلها، خائفاً عليها من الانتحار بسبب هيامها وتعلّقها الشديد بك.

لم أبك أتدري لماذا؟؟ لأن غيابك بات أشهى من حضورك، كنت أنتظر هذه اللحظة التي تعلن فيها عودتك إلى هناك. خسارة فيك تلك الدموع فكيف أبكيك؟ وأنت تبكيني كلّ ليلة، قلتها لك بصراحة ارحل إذا أردت ذلك فلست ممن يتمسّك بظلّ رجلٍ يختفي كلّما كنت بحاجة له، ارحل فطالما كان غيابك أفضل من حضورك.

وفي الصباح اشتدّ الشجار بيننا فحملت ثيابك جميعها ورميتها في وجهك قائلة لك بكلّ برود، ارحل واقطع الحدود ولا تعبرها مجدّداً، لا تعد ثانية، فما عادت حوّاء تنتظرك، وإن عدت فلن ترى القلب ذاته الذي اعتدت عليه، أرفض أن أكون جاريتك، كما كبرياؤك يقف في وجهك كبريائي أيضاً كذلك، يحرّمني حتى السؤال عنك.

لم أكن أعلم أنك تتمنّى إجابات كهذه لرحيلك، فبدأت بحزم أشيائك على عجل، ربّما كنت خائفاً من التوسّل إليك أن تبقى وما كنت لأفعلها.

دخلتُ المطبخ وأغلقت بابه كي أغسل الأطباق المكوّمة وأنا أدندن بصوتٍ ليس بمنخفض أغنية للأطفال كنت قد سمعّتها في التو وعلقت في ذهني، سمعتك تخبرني بأنّك راحلٌ ووقفت لثوانٍ تنتظر ردّي وتوسلاتي، أردت رؤية انكساراتي وهزائمي، رغبت أن تلمح دموعي، ولكن ما أغاظك أنّك رأيّت حواءً قويّة، لا تبك على رجلٍ يهرب منها دائماً.

أغلقت الباب وراءك وكان الوقت قد أشرف على المغيب وهذا يعني أنّك ستصل إلى دمشق مساءً، ألهذه الدرجة أردت الهرب بأيّة وسيلة وطريقة. ابنتك الكبرى ذات الخمسة أعوام هي من بكتك، لم تكن تدرك إلى أيّن أنت متّجه وإن كنت ستعود أم لا، ولكنّها كانت تبكي لتأخذها معك.

نسيت إخبارك أيضاً أنني كلما سألتها من تحبّ أكثر أنا أم أنت فتجاوبني ببراءة أنت. فأين أنت الآن عنها؟

M. A. M

١٢/٧

الرسالة السابعة عشر

أيحقّ لي قتل قلبي فلا أتذكّرك مطلقاً؟
أأغرس فيه سكيناً ذات نصلٍ حاد؟ أم إنّه لا علاقة له بك، قلبي بريء من تهمة كهذا، ذهني هو الذي يقوم كلّ ليلة باستحضار ذكرياتك ويقتلني حنيني إلى شخصك القديم.

خمسون حبّة دواء فقط كانت كافية لقتلي ولكنّ جسدي رفض تلك الحبوب فتقيّأته على مراحل، وكأنّ الحياة كانت تقول لي مازال في العمر بقيّة من ألم ومازال في الذاكرة ذكريات لم تأت بعد. وهاجت الثورات بين قلبي وعقلي، قلبي المتمنّي لحظة واحدة أن يراك فتضمّ قلبك إليه. وعقلي الرافض لك وكأنك من طائفة أخرى فلا يسعني التفكير بك. عقلي يصرّ أنّك من الماضي يجب قتلك ونفيك من الذاكرة.

ربّما أنانيّتك جاءت من والديك، دلالهما لك وأنت في هذا السن هو الذي أفسدك فظننت الكون كلّه ملعباً لك يحلو لك اللعب فيه وحدك. وعند أي عائق يصادفك كنت تهرع إليها لعلّها تحميك منّي قبل أيّ شيء آخر، فشلتُ بأن أكون لك أمّاً رغم محاولاتي الكثيرة. تريد أمّاً فقط لا زوجة تحتوي فشلك وهمومك. وحدها والدتك التي تحتضنك حين تكون ظالماً وتدعو لك بالنجاة من المشاكل التي حشرت نفسك بها. ووحده والدك الذي مازال إلى الآن يمنحك بضع ليرات تعيش بها فلا تلزم نفسك بعملٍ يتعبك. وتبقى ذلك الطفل المدلل لأسرتك. هنيئاً لك إذن بذلك، وهنيئاً لمن ستأخذ مكاني من بعدي.

زلّت قدمك وسقطت في هاوية مظلمة، سقطت من أعماق قلبي الجريح، فلم يعد لك مكان فيه، بعد أن دُمّر وهوى رأساً على عقب من غدرك. لم أفعل شيئاً حين رأيتك وقد زلت قدمك، لأنني سئمت من تلك اليد التي أمدّها لإنقاذك، ومن محاولاتي العديدة لانتشالك.

ويزداد حنيني إلى آدم القديم بعد أشهر من القطيعة التامة، ليتك تعلم كم حنيني قاسٍ وأنت كعادتك في الهجر والصّدّ، أحنّ إلى ذاتك القديمة فلعلّك حين عبرت الحدود مجدّداً عدت وارتديت رداءك من جديد. ولكنّك هيهات أن تفعل، ذاك الرداء ضاع في زحمة الثورات والحرب.

كلّما خرجت إلى المدينة المحاذية لمدينتي تمنيتُ لو أني أراك ولو كنت شبحاً، كم أتمنى أن أحظى برؤيتك ما فعل الزمان بك من بعدي؟ وهل الشوق يفتك بك كما يفتك بي؟ أم إنّك بالكاد تعرف من أنا؟ ومن أكون؟ وربّما نسيت اسمي.

أتراها دمشق اختنقت بأنفاسك فأبعدتك عن ساحتها، أم لم يرق لك العيش في حواريها، سماؤها اليوم صافية وهواؤها حار، فهل نسمات يوليو العليلة تأتيك كما تأتيني، أمّ إنك قررت هجر وطنك من جديد فرحلت تاركاً دمشق وراءك. أيّ رداء خلعت بعد أن غادرتها.

طبعاً لا تذكر من أكون ولا تذكر الأشياء التي جمعتنا وقد هاجرت إلى ذاكرتي مخلّفة ذاكرتك أرضاً جدباء لا زرع فيها ولا نبات، ليتني أستعير منك ذاكرتك قليلاً فأعيش حياة سعيدة كما تعيشها أنت. لو استعرت منّي أيضاً هذه الذكريات لاتصلت بي وأخبرتني بأنّ الحنين قاسٍ، لن أبالي، وكيف أبالي ونحن تبادلنا الأدوار. ولكنّك لن تمنحني ذاكرتك أعرف ذلك، كبرياؤك سيمنعك ويهددك بالعزلة والوحدة.

* * *

أنت لا تعرف كيف سارت حياتي من بعدك، ولم تسألني هذا السؤال مطلقاً.

سأجيبك عن أسئلة لم تطرحها ولن تطرحها فالماضي عندك عابر سبيل دخل حياتنا وخرج فنسيناه. أنت من نسي لأنّك القاتل، من قتل قلبي دون أن يشيعه، ولكن بما أنّني المغدورة أو المجنيّ عليها فلا يمكنني النسيان.

لم أذرف عليك دمعة واحدة حينها كأنّك كابوس انتهى، عاصفة شديدة في ليلة جليديّة انجلت حين أضاءت الشمس نورها. كأنني ولدتُ من جديد، في زمن سأجعله جديداً، قررت البدء دون أن يكون لك وجود في حياتي.

نمت حينها باكراً أوّل مرّة منذ دخولك عالمي، أحسست بأنّ حياتي لها طابع جديد. كأنني محرومة من النوم منذ قرن خلا، وكأنني لم أذق طعم النوم مطلقاً، فهربت من واقعي إلى أحلامي وكأنّك أتيت لتنهي ما بدأته، كانت يداك تشدّان بإحكام على عنقي الصغير، تريد الخلاص منّي، لم أستطع الكلام، كلّ ما فعلته أن سحبت يدك عن عنقي بعد أن كدت تقتلني، وسحبت يدك الأخرى لأقول لك (هل تريد خنقي) كانت معك حزمة من النقود، لم تتفوّه بكلمة كعادتك وفضلّت الصمت، أمّا أنا ففضلّت الاستيقاظ والهروب منك إلى واقعي. ارتشفت قليلاً من الماء الموجود بجانب سريري، لأرى مكانك خالياً، كيف دخلت عالم أحلامي؟ وهل أذنت لك بذلك. قبل أن ترحل كنت تضيّق الحصار عليّ، وما هذا الكابوس سوى تفسير لما كنت عليه قبل أن تهرب.

الليل أضحى صديقي، هو وكوابيسه حيث تزداد كل ليلة، أفتح عيني وأبكي، لا أبكيك أنت بل أبكي وحدتي وخوفي الدائم من الظلام، كانت تأتي إليّ أختي من غرفتها تاركة زوجها وحده لتحضنني وتهدهد لي كطفلة ما زالت في مهدها، تحاول تهدئتي وتقبّلني فأرتاح في أحضانها. أتدري أنّها أتت بعد رحيلك بيومين لتستقرّ عند زوجها ـ أخوك الأصغر ـ وكانت سلواناً لروحي، ربّما لذلك كنت مغتاظاً وحاقداً على أختي، لأنّي لم أسأل عن غيابك، أخبرتك إن كانت أختي هنا فمن أنت لأبكيك.

سأختار أيسر الطرق لنسيانك فأنت من المحرّمات، لا يجوز التفكير بك، ككأس خمر شديد البرودة في يومٍ شديد الحرارة وفمي قد جف من الظمأ. عقلي يقول حرام، وقلبي يقول لنرتشف قليلاً فقط كي نطفئ الظمأ.

استعنت على النسيان بقراءة الروايات الكثيرة، مئتا صفحة في اليوم، هذا جيّد فلن تجتاحني تلك الكوابيس اللعينة، وبدّلت الأدوار في حياتي، نوم في النهار لأنّ الكوابيس تخشى ضوء الشمس الساطع، وسهر في الليل حين لا صديق لي سوى الكتاب.

وماذا بعد؟

أأقتل نفسي كي تعيش حياتك مرتاح البال؟ سعيداً فلا همّ يطالك، ولا حزن ينال منك، ولكن من أنت لأفعلها فكلّما كنت ترحل عنّي أقوم بشحن نفسي بطاقة القوّة، وتصبح في نظري كالفأرِ في جحره.

لم تكن معي حين استعنت على نفسي بنفسي، سأثبت لك من هي حوّاء، التي لا يبكيها رجلٍ مثلك. بحثتُ عن عملٍ كي أنساك وأعيش لأطعم طفلتيّ من مالٍ أجنيه، فلا منّة لأحد عليّ، لم يكن الأمر بهذه الصعوبة التي كنت أتوقّعها، أسبوعان فقط كانا كافيان لإيجاد عمل يناسبني، أرأيت كيف وقف الله في صفّي، مسكين أنت فالله لن يقف بجوارك كما وقف معي.

وبدأت العمل في مركزٍ صحّي، كان رائعاً وكان كادره بكامله أشخاصاً طيبين، يسخّر الله للطيّبين أشباههم. وفي غمرة عملي هذا نسيتك ونسيت من تكون، بدأت العيش من جديد وعادت لي ضحكاتي كما كانت قبل أن تذيقني كأس الغدر، بدأت أبتاع ما أنا بحاجة إليه، لن أبخل على طفلتيّ، لن أدعهما تنتبهان إلى غيابك. فأخوك هو من كان لهن أباً في غربتهن، لذلك طفلتك الصغيرة لم تكن تناديه سوى بابا وحين عدت كانت تناديك «عمّو» وهذا ما أغاظك وأفرحني كثيراً، وإلى الآن وقد تجاوزت ابنتك السنتين والنصف وهي تعتقد أنّ أخاك أبوها وأنّك عمّها، ومعها كلّ الحقّ في هذا. فهي لا تعرفك ولا تعرف من تكون.

أختي وحدها من حملتني وحملت طفلتيّ حين أغيب في زحمة العمل أتركهنّ تحت رعايتها، فلا تتذمّر مطلقاً وتعاملهنّ كما أطفالها، فكنت أحبس دمعتي عنها فلا أذيقها ألماً لا تعرف كيف السبيل لمداواته، وبالمقابل لن أكون قد حمّلتها همّاً وهي بالكاد تحمل همومها.

غدت حياتي دونك أجمل، فإن لم تكن موجوداً فالبحر موجود وطريقه معروف، إلى هناك ذهبنا أنا وهي وأطفالنا، وفي غمرة شرودي في بائع الورود رأيت وردة حمراء ماثلة أمامي، لتقول لي أختي كلاماً لا تنساه الذاكرة، (إن لم يكن هناك من يهدينا الورد فلنهدِ الورد لأنفسنا. نحن فقط من نستحقّ الحياة) انتزعت الحياة مني تلك الدمعة الغبيّة

فابتلعتها قبل أن تراها، فقد اتفقنا بأنّ زمن الفرح هو ما حان، ضممت وردة أختي إلى صدري واستنشقت عطرها المزيّف، كانت كجمال ورودك التي تهديني إيّاها. إلّا أن هذه كانت أجمل لأنها خرجت من نفس لا تخون.

وهاجمتني ذكرياتك هناك، حيث خبّئت الوردة في حنايا ضلوعي كي ترحل ذكرياتك، لكنها ما إن تأتي حتّى يصعب رحيلها. حتى عطر من يمر من جانبي أستنشقه وكأنّه عطرك، أتراك اتفقت معهم على ذلك؟ ومع أنني أسير وأنا مثبّتة نظري على الأرض إلا أن رائحة العطر تجذبني بشدّة، لأسير دون وعي كما الثملة حين تشرب كثيراً وتنسى ذاتها.

أسرّع من خطواتي وكأنني حين أشتمّ عطرك أراك قد بعثت من جديد، ولكن ذلك مخجل أليس كذلك؟ فكيف أفكّر فيك بينما تعيش الحبّ مع أنثى غيري.

وحتّى الجبل رأيناه وقد أصابه الملل من كثرة ذهابنا إليه، حيث استمع إلى ضحكاتنا ولعب أطفالنا، أأخبرك الصدق: بوجود أختي بجواري كانت نزهاتنا أجمل من نزهاتك السخيفة، ولكن ذكرى وداعنا أنا وأنت في هذا المكان لا تغادر ذهني، تأتيني كل ساعة لتذكّرني بذكريات لنا هنا. أينما رحلتُ أجدني لا أهنأ بمكان، وطيف ذاكرتك يتجوّل معي دوماً.

أكلنا المثلّجات، قرأنا الروايات ذاتها، ابتعنا الكثير من الملابس، صنعنا العديد من الحلويات، شاهدنا الكثير من مسلسلات الدراما الكوريّة معاً، تعالت ضحكاتنا مردّدة الصدى في الهواء، بكينا معاً، زرنا العديد من الأقارب ولم نملّ من بعضنا، أول مرة لا تكون معي.

وفي بيروت حيث تضجّ المدينة بالحبّ والحياة والأمل، شيّعت حبّاً آخر على حدودها، حباً كان أثمن من حبّك وأطهر، ودّعت من كانت لي أختاً وسنداً في الحياة، ودعتها مع أطفالها الصغار، حبست دموعي في عينيّ كي لا أفضح وداعاً آخر، حبست عبرات تجمّعت في العيون و قبل أن ترهقني أرهقتها حين أقفلت عليها فانهمرت دون أن أسمح لها بذلك، وهناك حيث انتظرنا السيّارة السوداء جلسنا لتودّع هي بيروت وأودّعها

أنا، وعلى تخومها بكيت حين غادرت السيّارة مسرعة تشقّ غبار المدينة، دون أن يعبأ السائق البدين بجسدٍ تركه على الضفة الأخرى من المدينة، جسد لا روح فيه، تركه على رصيف مجهول في بلد غريب. بكت استطعت رؤية دموعها دون أن يحقّ لي الآن مسحها فيما قلبي يبكيها.

اختفت السيّارة بعد أن مرّت من ذاك المنعطف، وعدت لوحدتي مجدّداً، قطعت الشارع لأركب الحافلة فرأيت بيروت قد بدت أشدّ حزيناً ممّا كانت عليه، أتراها تبكي أختي أم تبكي وحدتي.

ترجّلت من تلك الحافلة ومشيتُ في شوارع طرابلس وحيدة ليس معي سوى دموع تقف على الأعتاب منتظرة الإذن لها بالانسكاب، ولم يكن حال طرابلس أقلّ حالاً من أختها لتبكي هي أيضاً دون دموع رأيت حزنها يطلّ من وراء تلك السحب السوداء.

دخلتُ إلى البيت حينها بعد أن شيّعت آخر حبّ لي في الحياة، لم تكن موجوداً فيه يا آدم. كان البيت خاوياً على عروشه، أخبرني من أبكي الآن، أنت أم هي. عرفت حينها سرّ تلك الذكريات فقد نشأت بسبب وحدتي وفراغي، حين كانت أختي معي لم يسعني الوقت لأتذكّر من تكون.

لم تكن موجوداً لأهرع إلى حضنك فأبكي ذاك الوداع وأشتكي ألم الوحدة، في كل مرّة ترحل أختي فأهرع إليك باكية وداعي إياها، لم أكن أملك شيئاً لأسلّي ذاتي سوى دموعٍ فتحت لها باب القفص كي تنسكب قبل أن تذبحني.

على من أبكي بالله عليك أخبرني!!

هلّا أجبت على رسالتي هذه وتخبرني على من أبكي أعليك أم على أختي أم على نفسي.

هل أخبروك بعودتي إلى البيت ذاته وحيدة ألملم جراحي وأخبّئها خلف قناع من ابتسامات كاذبة، هل أخبروك بذلك؟ رأيت حينها رقمٌ غريب يزيّن شاشة هاتفي، لأفاجئ بك بعد ثلاثة أشهر من القطيعة أما زلت تذكر من هي حواء ومن تكون؟

أجبت وسمعت صوتك الحزين، وأخبرك ساخرة هازئة بك برفضي التام. عاتبت قسوتك وهجرك وصدّك، رفضتك يا آدم ولوّل مرة أرفضك بقسوتك ذاتها التي استعرتها منك، لا أريدك ولم أعد بحاجة لحبّ سرعان ما تنتهي صلاحيّته، لا أريد لذاك الحبّ أن يفتح أبواباً أغلقتها بإرادتي.

بالله عليك لم كلّما أوصدت باباً في وجهك تفتح آخر؟ قلّ لي: ماذا تريد في النهاية؟ هل تريد دماري أكثر مما فعلت، لم يطب لك هذا النجاح الذي حققته دونك فأتيتني متوسّلاً المغفرة، كان يُخيّل لك أنك تراني شبحاً جاثماً على ركبتيه على حافة الانهيار، لم أسقط، ولن أسقط... غاب عن ذهنك أن تراني قد أسندت نفسي بنفسي.

تكلّمتَ عن أشياء كثيرة، وجرحك هو ما تكلّم هذه المرّة، ليس أنت، أحسست من صوتك أنك مختلف، أتراك عدت نادماً؟ أم إنه الثعلب الماثل في صدرك يراوغ كعادته.

هل نسيت تسويغك حينها للرحيل؟ أخبرتني أنني لو توسّلت إليك ألّا ترحل لما كنت تفعلها، أتراني بلا كبرياء لهذه الدرجة كي أتوسّل إليك البقاء وأنت في ذهنك خطط للرحيل، إن لم يكن في وقتها، كنت ستختلق مشاكل كثيرة كي ترحل، أردت الهرب من تلقاء ذاتك، فلا تضع حججاً واهية ومسوغات زائفة وفي النهاية تلقي اللوم عليّ.

كان قرار الرحيل موقّعاً من حبيبتك ومختوماً من قلبك. فلا حاجة لي بالموافقة. هي من قررت وأنت عبدٌ لها تنفّذ ما تطلبه منك. فلا تلمني إذن وتلوم كبريائي.

أنهيت مكالمتك الطويلة لتترك حوّاء جسداً لا روح فيها، بكيت كثيراً، أولّ مرّة مذ رحيلك أبكيك لهذه الدرجة، وانفتح نبع من الدموع لم يتوقّف، وضعت يدي على فمي وبكيتك بمرارة أكثر مما بكيت نفسي حين رحلت، كأنّك لا تأتي إلا في الأوقات الخاطئة التي أكون فيها قد شُفيت من حبّك.

وعادت اتصالاتك المتكرّرة لاستمالتي، أردّ عليك حيناً لأتجاهلك أحياناً، وكأنّك أصبحت غريباً لا تربطني بك قرابة، تتحدّث كما تشاء، بما تشاء، وكيفما تشاء، وأنا من يحقّ لي فقط الاستماع إلى تفاهاتك اللامتناهية.

هل تعرف لماذا كنت أحادثك، لأنني كنت بحاجة إليك أكثر مما كنت بحاجة إلى غيرك، لن أتحدّث إلى غيرك بحجّة الوحدة، لن أضعف مطلقاً وإن كنت بحاجة لمن أتحدّث إليه فستكون أنت، فلن أخونك بحجّة الغربة والوحدة، وإن كنت تخونني في اليوم مئة مرّة فأنا امرأة لا تخون، سأخونك معك أليس أفضل من خيانتك مع غيرك.

حديثي معك خوّلك التدخّل في حياتي كما لو كنت تعيش معي، وقد كنت أعدّك زائداً عليها، فقبل أن تخبرني بواجباتي اتجاهك وما يغضبك فيّ وما تعشقه، دعنا أوّلاً نجلس على طاولة الحوار وأخبرك من أنت بالنسبة لي وبعدها تقرر هل تكمل كلامك؟ أم تنسحب بكرامتك، هل يرضيك هذا؟ لم أعد قطتك المطيعة وجاريتك، افهم هذا... لم أعد عجينة بين يديك تعجنها كما يحلو لك. أنا أنثى متمرّدة عليك ولن أعود كما تتمنّى لأنّك أنت نفسك لم تعد كما أتمنّى.

تعاتبني على أبسط التفاصيل، تريدني أن أكون السبّاقة في كلّ شيء، من عليها البدء بالاعتذار، في كلّ مرّة تخطئ فيها أكون السبّاقة بكلام الغزل فترضى، وأنتظر مغازلتك إياي فأملّ الانتظار وتملّني الساعة وتكتفي بالصمت. في كلّ نقاش نبدؤه أكون من اخترته ولكن سرعان ما تختار نهايته، أتمنّى فتح أيّ حوارٍ معك ليبعدني عن وحدتي قليلاً، فتدخل دائرة صمتك المعتادة.

فلا تستغرب إذن يا من كنت هواي أن تختار بدقّة درب البداية، وأختار بالدقّة ذاتها درب النهاية، سأحترف اللعب مثلك ولكن لن أخون كما فعلت، فقواعدي في اللعب تختلف كلّ الاختلاف عن قواعد لعبتك.

لم تعد تحتمل أكثر من ذلك، تريد أن تأتي، كيف السبيل والحدود مغلقة؟ لا منافذ بين أوطان عشقناها، بيننا حدود يا صاحبي ومدنٌ كثيرة، بيننا حرب ودمار.

وها أنت تقرر المجيء لتنهي حوّاء الرافضة لقيودك. لا أطلب منك شيئاً سوى حفنة من ياسمين بلدي أشتم رائحتها وكأنّني أسير في شوارع دمشق ليعانقني الياسمين من الجانبين.

إذا أردت العودة إليّ هناك حدود مغلقة يجب عليك عبورها، تعال خلسة أثبت للكون كلّه أنّك عاشق لحوّاء، قم بالخطو خطوة في اتجاه علاقتنا فستراني في الطرف الآخر أنتظرك فلا تتأخّر، رفضت في البداية ولكن الفكرة لم تتركك، دارت في رأسك دورات عديدة، رفضت ذلك رفضاً قاطعاً، قاومت تلك الفكرة العنيدة، أخبرتني بأنها فكرة مستحيلة، عادت الفكرة لتحوم حول رأسك من جديد، فكّرت ثانية وثالثة ورابعة، إلى أن رجحت كفّة الفكرة، الآن ستعود إلى أحضاني خلسة.

فلا حدود بين عاشقين، هذه المرّة كانت مختلفة انتظرت مجيئك بفارغ الصبر، وبقلب أنثى متمرّدة وعاشقة وخائفة، انتظرتك. عشت حينها في ضياع تام، أدعو الله أن ينتزع حبّك من قلبي فيزداد أضعافاً.

سيتّهمني قرّائي حين يقرؤون رسائلي هذه نيابة عنك أنني أبالغ، فلا أنثى تحمل صفات الغباء هذه، لهم كلّ الحقّ في ذلك، ولا ألومهم فهم لا يعرفون مدى هشاشة قلبي.

اقترب مجيئك يا آدم واقتربت نهاية علاقتنا

M. A. M

١٤/٧

الرسالة الثامنة عشر

وكأن عاصفة هائجة أتت على غير موعدها لتأخذ قلبك معها وترحل إلى مكان عميق مظلم بالكاد يستطيع أن يرى ما حوله. لتترك قلبي وحده يبحث عن مكان صغير في قلب العاصفة لعلّ عاصفة أخرى تأتي وتأذن لقلبينا بالعناق. ولكن عبثاً... فالعاصفة التي جاءت في غير موعدها ستغيّر طريق عودتها ولن تراك في طريقها المظلم كي تحضرك معها.

لا بأس إن طال غيابك كثيراً فكلّنا على أرصفة الحبّ عابرون، إن طال غيابك مرّة فسيطول غيابي مرّات عديدة، ستلعن الشوق والحنين والدقائق والساعات، ستكسر تلك الساعة وتضربها على الجدار الأصمّ ولا ذنب له سوى جلوسه أمامك بصمت. تكسر هاتفك حين تراني متصلة في منتصف الليل ولا أحادثك، تلعن كبرياءك وصمتك. سيحدث هذا يوماً ما وسأكون على موعدٍ معه، حينها لن تجد لك موعداً معي تحجزه لك الحياة وستبقى على قائمة الانتظار جاثماً.

ومع أنّ شوقي لشخصك القديم لا يطاق، إلا أنني آثرت الكبرياء عليك، فأين أنت الآن وماذا تفعل؟ وأين أنا الآن وماذا أفعل؟ أتمنى أن أشغل بالك بالقدر الذي تشغل بالي.

يقول علماء النفس إن السبب في أنّك لا تستطيع إخراج الشخص من فكرك لأنه وبكلّ بساطة هو نفسه يفكّر بك. أتمنّى ذلك على الأقلّ فستمنحني حينها طاقة عجيبة وسيرتفع هرمون السعادة لدي بمجرّد معرفتي أنّك لم تكرهني بعد وأني مازلت طاغية على سلسلة أفكارك، وشجرة الذكريات تهاجمك كما تهاجمني، ودليل ذلك خوفك من ضياع ألبوم صور جمعنا وخّلد ذكرياتنا.

* * *

إذن تعال لنجلس أنا وأنت تحت شجرة الذكريات نستذكر عودتك الثانية والأخيرة إليّ التي قررتَ بعدها هجرة لا عودة فيها، وقررتُ أن أماثلك الهجر فلا يمكنك التفوّق عليّ في شيء.

استقبلتك بحبّ جديد وامرأة أخرى، عدتَ فرأيت قلب حوّاء ما زال على العهد يريدك، هذه المرّة فتحت صفحة جديدة وطلبت منك راجية ألّا تمزّقها، دعنا نعيش حياة جديدة إن لم تكن من أجلنا فلتكن من أجل طفلتينا.

طريقتك في الدخول إلى لبنان خلسة أثبتت لي ولأسرتينا أنّ مازال في قلبك متّسع لي. آدم العاشق لحوّاء ها هو قد عاد وارتدى رداءه الذي خلعه قبل عبوره الحدود.

لم أنس تلك الأيّام مطلقاً. فهل نسيتها أنت؟ لم أنسها لأنّها آخر موعد لنا، تحت سماء واحدة التقينا، وفي بيت واحد اجتمعنا وبعدها لاح الفراق لنا لتبتسم له سعيداً ولأبكيه بحزنٍ لم يرّق قلبك له ولم يحسّ به.

حبّ جديد جمعنا وكأننا عاشقان حديثا العشق، حين تطبق على صدري شجرة الذكريات تكاد تخنقني، أشهقُ ببكاء حاد، تعرف لماذا وإن كنت بعيداً؟ كيف لا أبكي ورقمك أضحى بين الأرقام في هاتفي، جلس في الصفّ الأخير هادئاً متّزناً كأن لا وجود له بين الأرقام العديدة، أراقب في صمتٍ صورك وحالاتك على «الواتس اب» آلاف المرّات في اليوم. ولكن الاتصال بك محرم عليّ، عقلي هو الأب القاسي الذي حرّم على ابنه القلب الصغير ألّا يفكّر بك، فكيف لو اتصل بك فستكون هناك جناية قتلٍ عن عمد وعن سبق إصرار وترصّد.

أغلق الهاتف بقلب حزين وكأنّك عدت غريباً، أخاف أن تخطئ أناملي فتبعث لك شيئاً فتراني باقية على العهد وأنت من نقضته. أخاف على قلبٍ أحبّك وهام بك، أخاف عليه من أنانيّتك، ومن قسوتك، ومن ظلمك. رقمك مثلك عاد إلى هاتفي غريباً كما بدأ، صديقاً جديداً بين الأرقام المهملة، الاتصال به أعظم خطيئة.

لم تكن الأيّام التي جمعتنا قاسية بل كانت رائعة بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى، كأنني قرأت ندماً ظاهراً بين عينيك، لاح لي ثم انطفئ.

بالله عليك أخبرني إذن ما جرى لك؟ كفّ عن صمتك القاسي وتحدّث إليّ ولو دقيقة. نظر لعينين أوجعهما رحيلك ولا تنظر إلى قدميّ، أنظر إلى عينيّ وأخبرني: بم كنت تفكّر حينها؟

أما آن لك أن تتحدّث بلغة يفهمها قلب أحببته وراهنت ألا يكون لسواك.

ما غيّرك كلّ هذا التغيير؟ لا أعرف حقّاً. أخبرني حين تأتيك رسالتي هذه وتقرؤها، اتصل بي متى شئت، في الثانية عشرة ظهراً، أو في السابعة مساءً، أو حتّى عند الثالثة فجراً ستجدني في انتظارك، هاتفي بيدي ورقمك يتراقص على شاشته إيقاع موسيقى لموزارت. أخبرني بندمك وسأسمعك من جديد، ككاهن في كنيسة يستمع أخطاء من يريد التوبة. وأنا سأسمعك ومن يدري ربّما سأقبل توبتك، أخبرني حينها بأّنني مازلت بقلبك باقية، بألمٍ يجتاح ضلوعك سببه فراقي، بدموعك المنسكبة وهي تشقّ طريق الحنين لتكسر صمتك فتبوح بأشياءٍ ما كنت لتبوح بها لولا ذاك الفراق اللعين الذي طال وبحبك الذي لم ينقص منه شيء.

لن أتحدّث معك بشيء... لن أدعك تستمع إلى زخّاتٍ من المطر سببها دموعي المنهمرة على وجنتي الحمراوتين، لن أدعك تستمع إلى نبضات قلبي الصارخة بحبّك، لن أدعك تستمع إلى شهقات الحنين كان سببها ثوراتٍ من شجرة الذكريات، سأبادلك الدور وأكتفي بالصمت، فزمن العتاب ولّى منذ زمن ولا سبيل لاستعادته، سأنتظرك إلى أن تنتهي من البوح بتلك المشاعر التي ظهرت فجأة من العدم، لا أدري إن كانت مشاعرك وليدة اللحظة، أم إنّها قديمة وكانت في سبات تام والآن استيقظت من غفوتها وما أدراني فربّما تكمل سباتها القاسي. ربّما كانت أيضاً مهترئة بعد أن أكلها الصدأ. الآن لم يعد يهمّني إن كانت صادقة أم كاذبة. لذلك اعذرني إن أغلقت الهاتف بوجهك غير مبالية بحديثك الذي لم تكمله.

سيخبرك عقلك حينها أنّك خسرتني ولن أعود إليك مجدّداً فقلبي لم يعد فندقاً تأتيه متى تشاء وتغادره حين تودّ الرحيل، لن يكون مقعداً في حديقة عامة تجلس عليه متى تشاء وترغب. إن كنت تحسبه كذلك فاعلم أنّه مليءٍ بالأشواك كي لا تبقى جالساً عليه أكثر من ثانية واحدة وتغادر كما جئت على عجل.

سأخبرك فيما بعد بأنني كنت أكذب فقد تملّكني الكبرياء حينها، إذ جلست على الأرض حافية القدمين، واستندت بجذعي على الجدار الأبيض المتأكّل بفعل الرطوبة وملتُ إليه لعلّه يسندني فلا أقع، شهقت بصوتٍ مرتفع وكتمت شهقة أخرى حيث مددت يدي فأغلقت فمي. خبّأت رأسي بين يديّ وكوّرت جسدي كأنني أخشى من أمرٍ على وشك الحدوث، خائفة من مراقبتك إياي فتعرف أنني في هذه اللحظة أنهار.

سأقف لأعلن لذاتي أنني قوية، ولن أقع مجدّداً مهما حدث، فأنا امرأة لا تسقط. وإن سقطت فواقفة في شموخٍ. في هذه اللحظة يعود رقمك ليظهر على شاشة هاتفي فأتجاهلك لأنّك من الماضي فلا يجوز التفكير بك. أنا امرأة الحاضر والمستقبل فقط. الماضي لا يعود فكفّ عن العبث بأحلامي وتذكّر أنني لن أعود إلى حضن تخلّى عنّي حين كنت في أمس الحاجة إليه.

* * *

كم بقينا معاً؟ هل تذكر؟ يوم... أسبوع... شهر.. ربّما ثلاثة أشهر، هذا ما أذكره. لقد مضت سنة على عودتك الأخيرة ولم يمض سوى أشهر عديدة على فراقنا. تبّاً للزهايمر حين يهاجمني فجأة كذئبٍ ينقضّ على شجرة ذكرياتي ويلتهم منها، كلّما حاولت تذكّر شيء مهم، ومع أنني مازلت في الثلاثين من عمري إلّا أن ذاكرتي تخونني وأنا في أمسّ الحاجة إليها. وأراها مخلصة وأنا في أمسّ الحاجة لنسيانها، ذاكرتي باتت ضعيفة جدّا، ضعيفة إلى درجة أنسى فيها كل خياناتك وأهرع إلى هاتفي حين يضيء باسم أحدهم فلا تكون أنت.

مع الأسف أتذكّر أنّ رقمي ليس بحوزتك، وإن كان بحوزتك فأنا آخر من تتذكّرها، ومن يدري ربّما تملّكك الزهايمر مثلي فنسيت عكس ما نسيته أنا. نسيت حوّاء وما يتعلّق بها.

إذن سأكون منصفة معك لنجعلها ثلاثة أشهر لا أكثر، وبعدها مللتني كلعبة شطرنج في يدك، تلعب بها كيفما تشاء فتملّها وترميها بصندوقها الصغير والذي يتّخذ على ظهره مربّعات بيضاء وسوداء كرقعة الشطرنج تماماً. ترميها لأنّك لا تعرف كيف تلعب بها وكم حاولت جاهدة تعليمك إياها فرفضت، كيف لا ترفض وأنت ذو الكبرياء الحاد وستهزمه حينها حوّاء، وهذا ما لا تقبله بتاتاً. الخسارة وإن كانت في لعبة على رقعة شطرنج.

هذه المرّة كان قرارك هو العكس، خلافاً لكلّ مرّة تهرب فيها. هذه المرّة قررتُ الهروب منك. هروبٌ لا عودة ولا لقاء يجمعنا بعده.

قررت أن أسافر مع طفلتيّ وحيدة إلى أوربا حيث أخواك يعيشان. بحجة وضعنا المادّي السيئ لماذا لا نحسّنه ولو قليلاً، وكأنني رجل البيت وأنت أنثاه.

راقتني الفكرة فلم أرفضها، ليس من أجلك بل من أجلي وافقت وجهزّتُ العدّة لذلك، أتدري لمَ لمْ أرفضها؟ لأنّي من أردت الهرب منك في ذاك الشهر من ليالي نوفمبر الباردة، أردت الهرب إلى أيّ مكان لا تجدني فيه، أيّ مكان لا تعثر عليّ فيه وقلبي لا يعثر عليك بتاتاً. أنا من أردت قطع الدروب فلا يوصل دربك بدربي إطلاقاً. مكان أرحل إليه فلا تتبعني ولا يتبعني قلبك بتاتاً.

لنتبادل الأدوار قليلاً، فلطالما تمنيّت أن أتقمّص دورك في الهروب. سأستعير منك الدور لأتفنن بالهروب منك وأنت من ينتظر هذه المرّة، سأجعلك تنتظر سنين لا أشهراً، هل تراني أتقن هذا الدور أكثر منك؟ أم ترى قلبي هش ضعيف لا يتحمل دوراً كهذا.

ولكنني من برج الجدي لا تنس ذلك، فعنادي تجاوز عنادك وبلغ الحد، صبرت صبراً شديداً لا يحتمله بشراً، سأصبر إلى أن يتوسّل إلي الصبر كي أكفّ عنه، وكما صبرت على خياناتك سنين، سأصبر على فراقك دهراً.

كنت أعرف أنك تريد الخلاص مني بأيّة وسيلة ولو كلّفك ذلك إبعادي عن حياتك عمراً لا تراني فيه ولا ترى ابنتيك الصغيرتين.

قبلتُ التحدّي وليكن ما تريد، ففي النهاية من سينتصر هو أنا لا أنت، لن أكون عائقاً أمام نزواتك وعلاقاتك الغراميّة التي لا تنتهي. لك ما أردت ولي ما أريد.

قرار الفراق لا تنس أنّك من اتخذه وكان عليّ تنفيذه فقط. لأغادر عالمك دون ضجة أحدثها في قلبك.

سأرحل، وكنت جادّة فيما أقول، وبتصميم على النجاح قلتها. قلبك كان يقول إنه ستكون فرصة تستعيدني فيها.

تباعدت قلوبنا، نفرنا من بعضنا، كرهنا بعضنا، صرخنا في وجوه بعضنا، بكيت وحدي، حزنت وحدك. اتهمتك بمحاولة إبعادي عن ساحتك كي تعود إلى دمشق حيث الحبّ والغرام بانتظارك. واتهمتني أنني لا أريد لعيشنا الاستقرار المادّي، هل أخبرك أحدهم بأني بت الرجل الذي يجب عليّه أن يوفر لك حياة مستقرّة وأنت من تكون؟

لا أطلب منك شيئاً سوى بضعة أيّامٍ نعيشها بسعادة وصفاء. ومع ذلك بخلت عليّ بحبّك في اللحظات الأخيرة.

كنت أدرك أنّ هذه آخر أيّامنا معاً، لماذا لا تدعني أعيشها بحبّ معك، لم تدعني أشيّع حبّنا الأخير معك وأقف على قبر هيامنا فأرثيه وأرثيك، كنت أردد على مسامعك دائماً (أفهمني يا حبيبي لن نرى بعضنا مجدّداً لنودّع البحر سويّاً، دعنا نسير على الجبال نودّعها) كن لي صديقاً فأنا بحاجة إليك صديقاً أكثر منك زوجاً، في آخر لحظة توسّلت الحبّ منك، كي أغيب وتبقى آخر اللحظات ما تطرحه شجرة الذكريات. أجملها

هي الأخيرة تمنيّتك حبّاً لا ينطفئ ولكن حبّك شمعة في ليلة عاصفة كلّما أشعلها تهبّ الريح لتطفئها. فمن أطفأ حبّنا غيرك.

جلست في عملي مغتاظة منك أشكو همومي لهبة صديقتي التي عرفتها بعد غيابك، كانت ممرضة لطيفة تعمل معي في المركز الصحّي، أشفقت علي وعوّضني الله عنها بغياب أختي ورحيلها، إذ ذقت الأمرّين لولا هبة التي مدّت لي يدها فانتشلتني وهي تضمّني إلى أعماق قلبها الطيّب. محظوظة أنا بهؤلاء الطيّبين أختي وابنة أختك، نسرين وهبة.

كانت حزينة مثلي وفي قلبها الغضّ آلامٌ لا تشبه آلامي. اقترحت عليّ أن نودّع ذاك البحر الذي شهد حبّنا ولم يشهد صداقتنا. أغلقنا هواتفنا ونظرنا إلى بعضنا بنظرة تحدٍّ وابتسامة منكسرة وعيون فيها الدمع قد اختبأ.

ذهبت وهبة إلى البحر حيث تعانقت أيدينا واشتبكت، كأنّها كانت تقول لي: (يدي لن تفلت يدك بتاتاً) كانت تخشى هروبي منها وكنت أخشى وداعنا الأبديّ. اعذرني إن منحتها الحبّ الذي كان لك فهي وأختي من يستحقّانه لا أنت. على ذاك المركب في عرض البحر جلسنا نندب حظّنا الباكي، لمحت دموعي خلف ابتسامتي ولمحت دموعها خلف ضحكتها. لعنّا الحبّ الذي قذفنا إلى هنا، بكينا أحزاننا.

على ذاك المركب جلسنا نداعب بعضنا بأفئدة حزينة مذبوحة من شيء اسمه العشق. تواسيني فتنهمر دمعتي الغبيّة، أواسيها فتكابر دمعها ولا تنهمر. أعجبني كبرياؤها الذي فاق كبريائي. وعنادها في الحب، طالما تمنيّت أن أكون مثلها رغم أنّها تصغرني بخمس سنوات.

التقت قلوبنا والتحمت قبل أن تلتقي أجسادنا، وبدلاً من الخروج معك ومن وداعك ووداع الحب، ذهبت لوداع الصداقة التي هي أثمن من الحب ولاسيما حبّك الذي فسد وأصبح غير قابل للاستعمال بعد أن أهلكته حين استنفدت مشاعرك كلّها مع عشيقاتك.

هبة لم تتخلّ عني وعن حبّي لها، في أوقاتي الحرجة هي من أجدها تساندني لا أنت. مسحت دموعي التي انهمرت بسببك، وعانقت وحدتي وكانت كظلّي الذي لا يفارقني. أين كنت حينها؟

يدها مازالت ممسكة بيدي بقوّة، خائفة أن أفلتها وأهرب فجأة فلا تراني. كانت في حاجتي كما كنت في حاجتها، عيناها مثبتتان على عيني الصغيرتين، تحاول ذاكرتها الاحتفاظ بتقاسيم وجهي كي لا تنساها، تحاول الاحتفاظ بآخر ذكرى لنا هناك. تلك السفينة شهدت عناقنا الحار ودموعنا الصامتة، وغاصت أجسادنا في بعضها متلاحمة كجسد واحد يخشى التمزّق. غربت الشمس كي تترك لنا مساحة من الصداقة نغمرها بحبّ لا ينضب. هم باعوا الحب ونحن من اشتريناه.

وحدها النوارس اصطفّت في مجموعات تسمع نشيج قلوبنا وبوح مشاعرنا. سرنا ولم تسر النوارس خلفنا. تركناها وغادرنا وأيدينا مازالت تخشى الابتعاد. تشابكت أكثر، خائفةً من عالمٍ لا نستطيع العوم فيه لوحدنا.

استوقفت سيّارة الأجرة لتدفع للسائق بدلاً مني، فتعانقنا العناق الأخير، وركبتُ من دونها، وبقيت وحيدة في شوارع طرابلس الحزينة ترقب سيّارتي المسرعة الهاربة من زحام المدينة. ظلّت وحيدة كما أتيت إليها وحيدة، وعيناها قد امتلأتا بدمعٍ من نهرٍ غزير فاض من كلا الجانبين.

عيني ثبتّها على هبة وهي تختفي وراء المارّة، كأنّهم كانوا أقل من هذا العدد حينما تعانقنا. كنّا وحدنا أمام البحر وطرابلس كانت فارغة سوى من أنفاسنا الحارقة التي ألهبت شوارعها، فظهر الناس ليستدفئوا أو ربّما ليشهدوا وداع الصداقة.

كرهتَ هبة حين عرفتها لسبب وحيد، وهو أنّها لم تسمح لك أن تصل إليها. ما كانت لتسمح بتخريب صداقتنا وأنت من ظننتها سهلة فكانت لك بالمرصاد. فزاد كرهك أضعافاً مضاعفة لها.

عدتُ إلى البيت مثقلة بأشياء كثيرة، وداع، حبّ، حنين، ذكريات اختزنتها أياماً، ستأتي قاسية وسأستعين عليها بهذه الذكريات لأنسى ما سيحصل لي من ألمٍ.

حين دلفت إلى البيت مساء سألتني ببرودك المعتاد عن المكان الذي كنت فيه، أخبرتك بالبرود ذاته: أين كنت ومع من كنت، لم تنبس ببنت شفة كعادتك حين أهزمك.

من الأجدر بك أن تخجل حينئذ، لأنّه من المفترض أن تكون من يأخذني إلى هناك فأودّع الحب والحبيب.

حينها وضعت على اسمك إشارة ضرب كبيرة حمراء، ونفيتك من ذاكرتي إلى الأبد. أعددت العدّة لأسافر إلى هناك، حيث واجهتني مخاطر جمّة. رحلة لن أكون بعدها لك. سأعبر حدوداً كثيرة، وعند كلّ حدود سأخلع عنّي رداء الحبّ لأنساك.

ستغيّرني الرحلة كثيراً وأنضج أكثر، لن تراني فتاة مدلّلة تبكي إن تجاهلتها. لن أخونك إطلاقاً، هذا عهد على ذاتي قطعته ألّا يدخل قلبي بعدك أحداً. لست من النوع الذي يخون، قلبي وحدك من ملكه، ولن يملكه غيرك ولكن لن يعود ملكك مطلقاً.

ركبتُ تلك السيّارة السوداء دون وداعك. لا أدري من هرب من وداع الآخر أنت أم أنا. وكأننا عاشقان يخشيان كلام الجوار إن التقيا. شقّت السيارة طريقها في شوارع طرابلس الحزينة التي تبكي سماؤها فوق رأسي. ودّعت طرابلس تلك المدينة الصاخبة بالحياة، وبالحبّ، وبالدفء.

ودّعت لبنان بعد خمس سنوات من الحبّ فيها. من الدفء في حناياك. من الألم والغدر والخيبات والخيانة والغربة والوحدة. تركتها جميعها خلفي وغادرتُ غير آبهة بها.

لن أكون هنا ذات يومٍ لأرى الحبّ ذاته الذي غادرته. لن أعود إلى الأطلال فأبكي على ماض كان باستطاعتك أن تجعله شيئاً رائعاً ولكنّك أبيت. جعلته رائعاً لك فقط.

وبدأت رحلتي الصعبة دونك، وإن كنت في قلبي حياً.

وحدها هبة من شقّت جدار حزني لتتصل بي فتطمئنّ على صديقة قلبها. غادرتها لتعود وحيدة... فضاقت عليها لبنان بما رحبت وهربت منها لتلتقيني في بلادٍ بعيدة كلّ البعد عن حياتنا. ولكن الحياة شاءت ألّا نلتقي.

M. A. M

١٨/٧

الرسالة التاسعة عشر

حين تصلك رسالتي هذه وتقرؤها بقلبك قبل عينيك الصغيرتين. إذا فكرت بقراءتها. فماذا ستفعل حينها؟ هل ستترك فنجان الشاي الساخن جانباً. وتفكّر بذلك الطريق الموحش الذي رميتني فيه، دفعتني إليه بأنانيّة لا يمكن وصفها، هل ستعاود الاتصال بأشقائك كي تحصل على رقمي، فتعتذر آلاف المرّات عن جريمتك هذه بحق إنسانيّتي. دون أن تعرف أنّي ما عدتُ لك، وبأنّك عدت غريباً. فماذا يفعل اعتذارك حينها؟

إذن تعال لأخبرك برحلة خضتها دونك، رحلة كانت بشاعتها أسهل من بشاعة قربك. رحلة خضتها وحدي دونك وأوّل مرة أخوضها دون أن تتراءى لي حبيباً بل غريباً.

* * *

غطّت ثلوج يناير لبنان، وكان البرد قاسياً مماثلاً لقسوتك، وبعد أن ودّعت بيروت لأستقبل تخوم الحدود توقّفت الحافلات بسبب الثلج الغزير الذي سدّ الطريق، كان كل شيء يقول لي ارجعي، وحده قلبي كان يقول لي: جدي سبباً لتستمرّي في المحاولة، لا أدري حينها من كان ينادي بالمضي قدماً عقلي أم قلبي. ما يهمّني هو اتصالي بك لأخبرك بورطة كهذه، أخبرتني أن أعود إلى أحضانك مجدّداً ألا أعبر الحدود، وهذا ما كنت لأفعله، اتصلت بي مراراً كي أرجع. ولكنّي أغلقت عين القلب حينها وفتحت عين العقل. لا أريد الرجوع وقد قررت الهرب منك، كيف أعود إليك وقد راهنت على الابتعاد، كان كل شيء ضدّي، وكأن لبنان حزينة على فراقنا فسدّت الثلوج دربي الذي اخترته. ساعات مرّت وأنا أنتظر إلى أن فتح الطريق، وأكملنا السير، ثلاث ساعات ونصف من المشي في الثلج على تلك الجبال البيضاء ومعي طفلتاك. كانت أقدامنا تغرس في الثلج عميقاً. فكلّ ما حولنا من جبال لبست الأبيض احتفالاً بصفحة بيضاء سأفتحها ولن تكون موجوداً لتمزقها.

عدتُ إلى دمشق بعد خمس سنوات من الهروب عنها، عدتها غريبة لا كابنة لها. أعطيت ذاك الشرطيّ الشاب ذا اللباس الأسود علبة البسكويت التي لي، وبدأت أحدّثه عن اشتياقي لبلد الياسمين.

شقّت الحافلة طريقها إلى دمشق وسط ظلامٍ كثيفٍ يلفها، على الرغم من الليل ومجيئه مبكّراً فإنني أحسسّت بالياسمين وهو يحوطني من كلا الجانبين، أغمضت عيني لأستنشق الياسمين الممزوج برائحة تراب دمشق المبللة. وكأن الياسمين نبت على أصابعي وروداً بيضاء صغيرة لا تقتلها الأيّام.

أيامي الخمس عشرة في دمشق كانت رائعة وكأنني سائحة فيها ولم أكن يوماً ابنة لها، ليتك كنت معي ودمشق ترتدي أروع حلّة لعودة ابنتها البارّة إلى حضنها.

اتصالاتي بك كانت عادية جداً، ولكني كنت أسمع توسّلاتك يومياً كيّ أعود أدراجي إليك، كيف أعود إلى من هجرته بإرادتي؟ وربّما كنت تعرف أنني لن أعود بقرار اتخذته، لذلك كنت تتوسّل وتعرف سابقاً الإجابة.

في زمن لم نحسب له حساباً جاء اليوم الذي تكون فيه المنتظر وأنا الهاربة. تبادلنا الأدوار أنا في دمشق لن أعود إليك وأنت حيث أنت لن تعثر علي.

في مدينة كبيرة تهت فيها ولا أدري ما هو المصير الذي ينتظرني؟ ودّعت دمشق وأهلها بعد أن ودّعت طرابلس وأهلها، مدينتين أحببتهما حبّاً زرعته في قلبي وسقيته ونما وطغى على حبّك، إن كانت طرابلس تحتويك فدمشق تحتوي طفولتي وعائلتي وياسمينتي، شقّت الحافلة طريقها وسط الصحراء متّجهة إلى الشمال كي تلحق بركب من سافروا. وتركتُ دمشق باكية خلفي تحتضن خيبة من خيباتها حين يرحل عنها من كان منها وفيها.

خمسة وأربعون يوماً تهتُ في متاهات الشمال الموحشة، غارقة في وحلٍ وضعتُ نفسي فيه قبل أن تضعني أنت، ماذا فعلت بعد أن رحلتُ عنك بقرار اتخذناه معاً، غيّرت وجهتك هذه المرّة إلى اللاذقيّة حيث تهرب من نسائك إلى أنثى جديدة، لا أعرف ما كنت

تفعله هناك، ربّما تزوجت من أخرى، ربّما اصطحبت تلك المرأة معك، وربّما كنت وحدك اعتزلت النساء لتبقى غارقاً في خيباتك، ربّما عدت إلى زوجتك التي تعتقد أنها سرقتك مني، ومع أنني أخبرتها مراراً بأنّ الرجل الحقيقي لا يُسرق، أنا من رميتك لها بكامل إرادتي، لم أعد بحاجة إلى رجلٍ مثلك يسيل لعابه حين يرى امرأة سواء كانت مثيرة أم لم تكن، كتبت عليك: البضاعة التي تباع لا تردّ ولا تستبدل، بضاعة زهيدة تتهافت عليك النسوة، في حين كنت لديك جوهرة الوصول إليّ شبه مستحيل، إن لم يكن مستحيلاً، فإلى الآن لم أفكّر بخيانتك وكان بوسعي فعل ذلك وكل الطرق كانت مفتوحة لي، ولكن كلّكم متشابهون.

رقصت على شفرتك وحدي، كان رقصي يبهرك كما ابتسامتي، لم تلمح آثار الدم النازفة من باطن قدمي، كانت شفرتك حدّها كحدّ السيف في الألم. ولكن الكبرياء منعني من إظهار ألمي، وقد حاولت جاهدة إخفاء قدمي كي لا تلمح آثار دمائي عليها.

في بلاد لم تطأها قدماي من قبل عرفتُ من تكون أنت، ومن أكون أنا، وأوّل مرة لا أبكيك، بل قلبي يعلنها أول مرة في بيانٍ له يجاهر بكرهك على الملأ غير آبهٍ لأحد.

في تلك البلاد البعيدة عنك، كبعد قلبي عن قلبك، رأيتُ غدرك خمراً أتذوّقه باكية، في كلّ ليلة تمرّ عليّ كنتُ أنسج لذاتي قدراً لا يجمعنا.

وحدهما هبة وأختي كانتا عوناً في شدّتي، سبقتاني إلى تلك البلاد الباردة، ومدتا إليّ أيديهما ومعهما حبلٌ طويل ليسحبني من حفرة كبيرة. أكبر من خيباتك. مع الأسف لم أتمسّك جيّداً بالحبل، فوقعت أرضاً وارتطم رأسي بشيء قاسٍ لا أتذكّره. كلّ ما أتذكّره هو أنّي سمعت نداء هبة وأختي على جرف الحفرة، تناديني هبة كي أحاول مجدّداً فلا أفشل، تمدّ أختي يدها وكلّ ظنّها أن أيدينا ستعانق بعضها مجدّداً. صوتك لم يكن موجوداً مع تلك الأصوات الصارخة في الأعلى. وحدك من انتهى دوره في حياتي وكأنّك كنت «كومبارس» ولم تكن بطلاً.

إذن أعذرني إن قلتُ لك إنني نسيتك هناك ونسيت في حياتي من تكون، عشتُ عمري وكأنني ولدتُ من جديد، خلعت رداءك أخيراً. عشت حياة حبّ دونك... عشت حياة فرحٍ، حياة أمل، حياة حزن، حياة شقاء.

عشت حياتين هناك، لا أدري كيف مزجتهما معاً. حياة دموعٍ وحزن، وحياة فرح وضحك. ولكنني اكتشفت ذاتي التي بإمكانها أن تكون قويّة إن أرادت ذلك.

غدرك هو من علّمني الكثير، علّمني كيف أحبس دمعتي، فلا يراها مخلوق سواي، تعلمت أن أغرس السهام في قلبي دون أن تلمح آلامي ودموعي خلف قناع الابتسامة، تعلّمت ألا أبكي عليك بتاتاً، فأنت لم تكن رجلاً يوماً بل زائداً على الرجال،

ربّما كان عليّ أن أظهر فرحتي في هذه الأوقات للجميع، فأنا لم أعتد أن يرى من لا أعرفه دمعتي، في هذه الرحلة الغريبة كرهك كان واجباً عليّ، كنت أرى ذاتي وهي تهرب منك الهروب الأخير معلنة الانتصار وانتهاء المسرحيّة لصالحها.

لم تعد تريدني بتاتاً، بتّ تكرهني، إذن تعادلنا، ما بين كرهي وكرهك لن ينبت سوى صبّار ذي أشواك كثيرة حالت بيننا. لن تنبت حياة مفعمة بالحبّ بل ستنقسم حياتنا إلى حياتين، حياة ستعيشها بين نسائك العاهرات وحياة لي ولابنتيك سأعيشها لهما فقط، ولن يكون لك دور فيها.

في الطبيعة الخضراء هناك أدركتني مخاطر جمّة، لم تكن صديقاً لي في الهاتف كي أبثّ لك مشاكلي وأبكي غربتي ووحدتي. وقفت حائرة بين خيارين لا ثالث لهما، الخياران كانا قاسيين عليّ ولكن لا خيار ثالثاً لي، لم تكن بين خياراتي المطروحة وهذا يعني أنّك سقطت من عيني حين ذرفت آخر دمعة عليك.

الخيار الأوّل هو إكمال الدرب وحدي وفيه من الحفر الكثير ومن الصعوبات الأكثر، لا أستطيع وحدي يا آدم فحوّاء لا تنسى أنّها ما زالت صغيرة وجميلة والأطماع حولها في تزايد، وأخاف حين أدخل تلك البلاد الباردة أن أتوه فيها ولا أجد يد هبة لتنتشلني ولا حضن أختي ليدفئني، والخيار الثاني هو أن أعود أدراجي إلى دمشق فأعانق

ياسمينها الذي رفض المجيء معي، وأطوي صفحة فتحتها لك ومن أجلك، سأمزّق الدفاتر كلّها التي فتحتها لك يوماً، وسأحرقها كي لا أسمع منك عبارة (افتحي صفحة جديدة). أأستعير منك قسوتك وأمنع نفسي من العبور إلى الماضي، فالماضي كما أعلنت أنت سابقاً يجب نسيانه، تبّاً لهذا الزهايمر الذي عاد ليهاجمني حيث أنسى أين أضع هاتفي ولا أنسى تفاصيل ماضيك معي.

لم تعتد ذاتي كلمة فشل، هذه الكلمة حذفتها من قاموس حياتي للأبد، كيف أعود إلى دمشق ولم أتجاوز بعد هذه الدروب، بكيتُ كثيراً ولم أبكك، دعوتُ خالقي في كلّ سجدة أن يبعد عنّي قسوة الدروب.

يئستُ من الطرق المتعرّجة والأوهام التي يخلقها ذهني كلّ ثانية، كانت مختلفة هذه البلاد عن دمشق الفيحاء، فهنا الحرب مشتعلة ونارها وصلت عنان السماء، أين المفر من حربٍ كهذه وكلّ الدروب أوصدت نهايتها ولا شيء هناك يُسمع سوى هدير الطائرات وأزيز الرصاص.

نمتُ نومات متقطّعة وباتت الليالي كوابيس مفزعة لا تنتهي، أهرب من منطقة إلى أخرى أكثر أماناً فتعود الطائرات لتهاجم مساحتي التي كانت آمنة قبل أن يحتلّها أزيز الرصاص.

لا أدري لم أنا هنا؟ وماذا أفعل؟ ولماذا جئت؟ هل السبب في وجودي هنا أنا؟ أم أنت؟ لم يكن ذنبي الذي حصل هناك، كل ما أردته هو الهروب بعيداً إلى حيث لا تصلني نداءاتك.

هروبي منك بات يتعبني ويرهقني، سأستريح قليلاً في مساحة آمنة، لن أستريح وسط دربك، سأستريح على صخرة قاسية في دربٍ أبعد ما يكون عن دربك.

أما آن لي وضع النقاط على الحروف فأحذف رقمك قبل أن تحذف من حياتي فرحاً قادماً، مشى بجانبي دون أن يأخذني في أحضانه. أوهمت طفلتك ذات الأعوام الخمس بموتك، ولم أستطع أن أوهم قلبي بذلك، فهو ذكيّ جدّاً ويدرك كذبي.

أيعقل أن يأتي يومٌ وتخبرني بندمك على ما أنا فيه الآن، على قرار اتخذته وفعل صنعته أنا؟ وربّما تصل وقاحتك الحدّ الذي تخبرني فيه أنّك العاشق المتيّم الذي تؤلمه دمعتي.

لا تتصل إطلاقاً، كم مرّة يجب أن أقولها، لن أتّصل بك، لنتعاهد على ذلك كما تعاهدنا على الحبّ يوماً، ومع أنّ رقمك مازال مهملاً في آخر قائمة الأسماء لدي فإنني لن أستخدمه يوماً وإن كنت في ورطة أكبر من هذه.

لم يعد قلبي صالحاً للحبّ فلا تنس أنك من دمّرته بعد أن احتللته وعثت فيه فساداً وتركته خاوياً على عروشه. إذن فقلبي بات خاوياً ولم أعد تلك المرأة التي تنتحب إن لم تخبرها كلمة غزل ترضي غرورها. لأن العبرة في النهاية، أدركت وإدراكي جاء متأخّراً أنّها تمثيلية بارعة منك فلا تتوقّع مني أن أقف وحدي أصفّق لك بكلتا يديّ وابتسم لك ابتسامة المعجبة بتمثيلك الهزلي.

أخبرتني قبل رحيلي بأنّ تصرفاتي باتت غريبة بعض الشيء عما اعتدت عليه، ربّما ظننتها هكذا إرضاءً لكبريائك، أخبرتك أنّك ستعتادها كما اعتدتُ ردحاً من الزمن تصرّفاتك الصبيانيّة، المهمّ في كلّ ما حدث ويحدث أنّك الصائب وأنني المخطئة.

مازلتُ طفلة يفرحني الاهتمام ويقتلني الإهمال. سأسدل الستار في النهاية غير آسفة لانتهاء مشهدٍ لا يعجبك، ستلمح في نهاية المشهد وجهاً آخر لم تألفه من قبل ولم تعتد عليه، صدقني هذا الوجه لم تصنعه المصادفة، بل ولد جرّاء غدرك وخياناتك، وصار يواجهك بكلِّ ثقة وبرود، استعرتُ منك برودك دون أن تطالبني به.

هذه المرّة لن أنحني ولن أبكي ولن أحزن، بل سأعبث حتى تنتهي الحياة وأنام.

هاجمتني الذكريات وأنا هناك، فقفزت في ذهني أمنيتي الأخيرة أن تكون عاشقاً لي وحدي، وكلّما حاولت أن أصنع من الأمنية حقيقة بمحاولة فتح حديثٍ ما كي تبوح لي بمكنونات قلبك كعادتك التي تركتها منذ زمن، فإنك تصمت، ربّما اختلط عليك الأمر

نسيت من أكون فظننتني كالأخريات مجرّد جسدٍ فقط، ولا علاقة لهنّ بعلاقاتك الشخصيّة.

أغلقت هاتفي وتدحرجت دمعة إلى القاع، ربّما هي آخر دمعة تبكيك، وأقسمت حينها ألّا أحادثك أبداً، فأنا حوّاء التي تعرفها ولم أكن يوماً من صنف عشيقاتك، أنا الأحقّ بكل ما أُخذ منّي.

تمرّ الساعات بسرعة فأبعث لك مجدّداً كي أطمئنّ عليك من جديد، أو ربّما كنت أطمئنّ على مكانة قلبي الجديدة في قلبك. وأتمنّى في سرّي أن تخبرني كم الشوق يهدّ كيانك ولكن هيهات أن تتكلّم وتفضح قلبك.

بعد كلّ هذه الذكريات التي اجتاحتني فجأة لا يحقّ لي الحديث عنك أو فتح أيّ حوار.

لنعد إلى حيث بدأنا، هناك حيث هاجمتني كل أنواع الآلام، رأيتُ غريباً لم أعرفه من قبل أحنّ عليّ منك. لم يكن حبيباً ولا صديقاً ولا أخاً، رأيت الخوف في عينيه عليّ، حين اجتاحني خوفٌ من كلّ شيء. التقت القلوب لتحكي حكايات كثيرة كنت محورها.

لم تكن لي لأخبرك عما حدث، ولم تكن لي لتسمعني، ولا لتثير خوفي، لم ترَ دموعي وقد امتدّت في جنح الليل تشتكي قسوة الحياة على قلبي الهش، لم تسمع ندائي، كان نداءً واحداً ولم أكرره، وبعدها أخفضت نظري وسرتُ وحدي غير آبهة بك، لم تسمع نبض قلبي الحزين وقد كانت دقّاته تهمس باسمك.

الغريب بات أقرب إليّ منك ومع ذلك لم أخنك معه ولا مع غيره، احتفظت بقلبي لك وحدك، لم أخنك ومع كرهي المتزايد لك لم أفعلها، فلست بخائنة لأفعلها. هددتك حينها بالطلاق والزواج بآخر أكثر حبّاً منك. لم أكن جادّة في ذلك ولكنني أردت ترك آخر فرصة للحبّ الذي ربطنا سابقاً. لكنّك لم تفعل شيئاً سوى إغلاق هاتفك كيّ لا أعاود الاتصال بك.

في حين كنت تعيش العسل مع صاحبة اختارها قلبك، وكنت أعيش المرّ وأتذوّق الحنظل في تلك البلاد الغريبة، أقنعتني بأنّك في اللاذقيّة لوحدك تعيش، طلبت منّي عدم المجيء إليك. أو تظنني بلا كرامة إلى هذه الدرجة كي آتي رجلاً لا يرغبني، أنت غبي إن فكرت بذلك. لو كان بيني وبينك جدار فقط وكنت لا ترغب بي فلن أتخطّى ذاك الجدار، إن كنت على الباب واقفة وكنت لا تريدني فأعدك ألّا تتخطّى قدمي العتبة.

لم يكن الخلاف أين تقطن، الخلاف هو أننا افترقنا، وما زلت تعتقد خلاف ذلك.

M. A. M

٢٠/٧

الرسالة العشرون

(الرسالة الأخيرة من أحرف العتاب)

مازال رقم هاتفك معي، أتفقّده كلّ ليلة حنينٍ
قبل النوم وكأنني أخشى عليه الهرب من هاتفي كما صاحبه تماماً، أراقب حالاتك وصورك على برنامج «الواتس اب»، أشعر بك من حروف تكتبها أنّك لست بخير، بحاجة إليّ وإن كان كبرياؤك على أشدّه فحروفك تخونك وتفضحك، من حروفك أشعر بالألم الكبير الذي يجتاحك ويقضّ مضجعك، أراقبك دون كلال أو ملالٍ، دون حزنٍ أو فرح، لم يعد قلبي يخفق بشدّة إن رآك «متّصلاً»، بل أنتظر كغريبة في أرض غريب تلملم بقاياها لترحل بصمت.

ستقول لي بملء فيك أيعقل هذا! أما زلت على العهد تشعرين بصراخ قلبي وإن لم أترجمه، تريّث قليلاً فسأخبرك كيف أعرف ذلك.

اليوم وضعت صورة للحبّ فكأنّك تعيش حباً جديداً، البارحة كانت صورة حزن لفقدٍ ما، لا أعرف هنا من كنت تفتقد؟ أنا، أم واحدة أخرى غابت عنك فزرعت الفقد في قلبك كما زرعته في قلبي سابقاً لا الآن. وحين وضعت صورة للأمّ عرفت أنّك أشدّ الحاجة لصدرٍ تلقي عليه همومك، وبحاجة إلى والدتك كطفلٍ صغير نائم بجوارها وحين يفتح عينيه الصغيرتين لا يراها ويلملم لعبه ليحملها ويبحث عنها، وحين تملّ حياتك وروتينها السخيف تحذف صورتك وتبقيها هكذا. وحين أصبحت تضع صوراً كثيرة عرفت أنّك في حالة ضياعٍ تام وغارقٌ في متاهات مظلمة حدّ الثمالة، لا تعرف أين أنت؟ ولا ماذا تريد؟ ولا تعرف نهاية لكلِّ ما أنت غارقٌ فيه. أخبرني إذن هل صادفتك حوّاءٌ أخرى تشعر بك مثلي؟

زمن البكاء عليك قد ولّى، كل ما أفعله هو إغلاق هاتفي كأنّه لا يحتويك بين طيّاته، وأرجو لك من قلبي حياة ملئها التعاسة، لست فاضلة أو مثاليّة لأرجو لك حياة هانئة، بل سأرجو لك حياة جديدة لا تعرف السعادة سبيل إليها. لا أرجو شيئاً سوى أن تحظى بأنثى تذيق قلبك من الكأس ذاته الذي جرّعتني إياه.

* * *

عدتُ إلى دمشق أجرّ خلفي جراحات منهزمة، وواقع مرير. أجرّ خلفي أذيال الخيبة، تلقيّت احتفالاً وقصصت ذاك الشريط الأحمر المصنوع من الساتان فرحة بدمعة يتيمة وحيدة من الماضي ولدت وبقيت، وحدهم أسرتي وأصدقائي باركوا عودتي إلى ربوع الياسمين. وإلى حضنهم من جديد.

شكراً لك، فقد قذفتني هناك لأعود امرأة من حديد صلبة، لا من ورقٍ هش كما كنت، امرأة لن تعرفها، حذفت آدم من حياتها فلم يعد أحد أركانها أو دعائمها، تستطيع هزيمتك بكلمة، وتجرحك بحرف. لن أهزمك بالدموع فأنا أرقى من ذلك، ولا بالتوسّلات كما فعلتها سابقاً وندمت عليها الآن.

سأهزمك بالنجاح، النجاح وحده قادرٌ على هزيمتك، سأنجح في حياتي التي اخترتها ولم تخترها، لن تكون معي لأخبرك تفاصيل أيامي التي تراها مملّة، لن أدعك تعيش في ذاكرتي وسأنفيك إلى أديم الأرض فأنساك، ولكنّك سرعان ما تعود إلى ذاكرتي كالسرطان القاتل ولا أعرف السبيل للنجاة منك.

طلب منّي والدك العودة إلى لبنان، ولكن ما حاجتي إلى بلد لستَ فيها. ألا يعرف والدك بأنّ وطناً لا يحتويك محرّمة عليّ زيارته. كيف أعود إلى وطنٍ شهد الحبّ والخيانة معاً؟ إلى شوارع سرنا فيها معاً وكتبنا حبّنا في دروبها فأضاءت عتمتها.

لا ذكريات لنا في دمشق فأرثيها. كلّ ذكريات الشوق هناك. لا عودة إليها طالما احتوت فيما مضى حبّاً كان صادقاً.

اتصلتُ بك لأمر طارئ، فرأيتُ الغضب يطلّ من بين حروفك السريعة، طلبت منّي العودة إلى هناك لكي أكون تحت وصايتك وأنت هنا. بلغت وقاحتك مبلغاً لتأمر وتنهى كما لو كنتُ معك في بيتٍ واحدٍ. أخبرتك ببرود لم يعجبك: وطنٌ لست فيه لستُ بحاجة إليه، ولكنّك أردت مني العوّدة إلى هناك، كي تعود إليّ متى شئت ورغبت. ولكن هيهات أن يحدث ذلك.

أنت تفكّر بذلك وأنا أفكّر بحياة ثانية لن يكون لك دورٌ فيها، حتّى تلك الأدوار الثانويّة لن تكون لك، لن تكون طرفاً في حياة بدأتها أنا، سأعيش دونك هذه المرّة ولن أطلعك على أي شيء.

مضت ثلاثة أشهر على غيابك وأنا في فرحٍ، وبعدها عاد الحنين إلى ربوع قلبي يعيث فيه فساداً غير آبـهٍ بـه، عاد بي الحنين لأيّامٍ بعيدة كلّ البعد، ظننتها قد هوت من شجرة الذكريات ولم ألتقطها، في أيام كنت عاشقاً لي، لأبكِ حبّي بصمت كما بكيت حنيني بالصمت ذاتـه، وبصمتٍ أتحسس رقمك وهو متوضّع في أعلى الشاشة، فأنتحب حنيناً لا أدري مصدره.

لا أريد لأحد أن يذكرك بسوء، ومع ذلك كنت أتوسّل محاميّ أن يسرع بإجراءات الانفصال النهائي، وقلبي يبكي حبّك.

جئتَ في موعدك الذي حدده المحامي، لكي ننهي ذلك بصمت ويرحلُ كلّ جسد إلى حيث كان، رأيتك وألقيت التحيّة عليك كصديق أعرفـه، لا كحبيب هواه قلبي، أصبحت بديناً عمّا كنت عليه، أريتني شاشة هاتفك وقد كسرتها حين أنبئك المحامي بخبر الانفصال، لا يهمّني كلّ هذا، ما همّني هو أنّك جئت لا لتنهي علاقتنا وإنّما لتبدأ علاقتنا، وإن كنت مازلت بارداً في ذلك.

من تحت نظارتي السوداء انهمرت دمعتان على قلبك، فطلبت منّي أن أكفّ عن البكاء. ليتك احتضنت حبّي حينها، ومسحت تلك العبرات. كلّ ما فعلته أنّك تمتمت بكلماتٍ مبهمة، أخبرتني أنك تعيش وحدك، لم تعتذر ولم تسوّغ وكأنّك من طلب الانفصال لا أنا. كنت مسرعاً كي تلحق بالحافلة إلى اللاذقيّة، طلبت منّي ألّا أتزوّج وأنت لن تتزوّج كي تستعيدني لاحقاً. نظرتُ إليك من أسفل النظارة السوداء وسألتك إذن لم الانفصال؟ إن كان هناك لقاءٌ سيجمعنا.

لم توقف قراري هذا، ولم تخبر القاضي بحبّك إياي وبعدم موافقتك على ذلك، كلّ ما عليك فعله هو التوقيع بصمت، وقررنا أن نشيّع حبّنا إلى مثواه الأخير معاً، فودّعناه كما ودعنا ياسمين الشام. تشابكت أيدينا لتودّع وداعاً لا عودة بعده. وحدها عصافير الشام وقفت على ضفاف بردى لتشيّع الحبّ معنا.

أكره قلبي وأصبّ عليه اللعنات فمازال هائماً في حبّك. انتبه إلى كلماتي جيّداً فأنا لا أبكيك بل أبكي حبّاً جمعنا، أبكي قسوتك، أبكي نفسي حين وثقت بك.

اتصالاتك تأتي إلى هاتفي لتحادث طفلتيك فقط، فلا علاقة لي بك بعد الآن.

اعذرني يا آدم إن أتيت إلى بابي مرّة ولم ترني حين تطرقه، اعذرني فحينها لن تكون لي ولن أكون لك.

M. A. M

٢٠/٧

اعذروني إن أطلتُ عليكم يا من قرأتم رسائلي هذه.
فهي رسائل أدرك مسبقاً أنّها ستضلّ طريقها ولن تهتدي. ولكن حين تنتهين منها يا فتاتي أرسليها إلى كل آدم يريد بدء علاقة معك، أخبريه أنّك تعرفين النهاية جيّداً فلا سبيل للمراوغة.

أرسليها إلى كل آدم ترينه، فربّما يظهر من بينهم ويعرف أنّه المقصود، وأنّ هذه الرسائل كُتبت له، وعلى ذلك لن يقرأها. سيكتفي بالنظر لها ثواني فقط، وبعدها يشيح وجهه عنها.

لا تقبلي برجلٍ كهذا لا يرضي غرورك، إن كان ذئباً فأخبريه أنّك لبؤة، وإن كان من صنف العنيدين فأخبريه أنّك من صنف أصحاب الكبرياء. لا تقبلي بأنصاف الحلول، فإمّا أن يكون لك كاملاً، وألا يكون فلا حاجة لك به.

هل سيعود آدم إلى حوّاء؟ وإن عاد فهل سترمي خلفها ما فعل بها وتهرع إلى احتضانه؟ ودموع الفرح تغشي عينيها مع علمها المسبق أنّه سيرميها عندما يقابل أوّل عابرة سبيل تعترض طريقه. وربّما سيتملّكها الزهايمر فتنسى غدره وخياناته.

أم ستبقى في مكانها وكأنّها متشبّثة بأرض نبتت لها جذورٌ فيها؟ ستكتفي بالنظر إليه من بعيد، وستسير أمامه وكأنّها لم تعرفه يوماً، سيتراءى لها كسرابٍ في صحراء قاحلة، وتعرف تمام المعرفة أنّه وهم، إن ركضت إليه فسيختفي السراب سريعاً وكأنّه لم يكن.

بشارع عريض سيسيران عكس بعضهما لتلتقي الوجوه الصامتة، ستنظر إليه. لا.. لا لن تنظر.. ستنظر إلى موقع قدمها فقط، ستمضي في السير فيرتطم الكتفان ببعضهما مصدرين حفيفاً خفيفاً، وتكمل السير مشرئبّة العنق كما النسر وتتركه خلفها غير مبالية به.

في حين سيظلّ هو كالجدار واقفاً في مكانه وحين تتجاوزه بمترين فقط سيلتفت سريعاً إليها، ويناديها، سيناديها كثيراً ولا يعود إلى أذنيه سوى صدى صوته، ولكن هيهات أن تسمع نداءاته، فتمضي ببطء دون أن تلتفت وراءها كما الساعة حين يضيع عقرب الثواني.

ويبقى في الظلام الكثيف وحده كتمثال انتزع من حديقة عامّة، حوله الناس كثر، الشارع مزدحم بالمارّة ولكنّهم يتراءون له كالأشباح، وحدها حوّاء تكون حقيقة ولكنّها تختفي خلف الجموع المحتشدة.

سيقف في ذاك الشارع ويحكّ رأسه بالبنصر، ليفكّر قليلاً ويخفض بعدها بصره إلى الأرض بعد أن تختفي، ليعاود السير وحده ويقرّ بخسارته التي لا تعوّض.

فحوّاء غفرت كثيراً، وسيأتي يومٌ لا تستطيع فيه النظر إلى وجهه.

تـمّت

٢٧/٨/٢٠١٧

من رحم الألم يولد الإبداع